مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

نداء البراري

جاك لندن

ترجمة: مها محمود صالح

التنوير

نداء البراري

جاك لندن

ترجمة: مها محمود صالح

الترقيم الدولي: 978-614-472-080-6

الطبعة الأولى: 2019

هذه ترجمة رواية

The Call of the Wild
By Jack London

دار التنوير 2019 © جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة

الناشر: التنوير

النشر ودار التنوير للطباعة

بيروت – بئر حسن – بناية فارس قاسم (سارة بنما) – الطابق السفلي: لبنان

هاتف: 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) – جاردن سيتي 2 – القاهرة: مصر

هاتف: 002022795557

بريد الكتروني: cairo@dar-altanweer.com

تونس: تونس 1001 -، نهج سعد أبو بكر 24

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد الكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.daraltanweer.com

١ – إلى الحياة البدائيّة

«أشواق الارتحال تنبعث من جديد

تكافح للانفكاك من أسر التقاليد

وها هي ذي السلالة الوحشيّة

تصحو من سباتها العميق،

لتعودَ إلى طبعها العتيق»(١).

لم يقرأ باك الجرائد، ولو فعل لأدرك أن المتاعب تلوح في الأفق. ولم تكن تلك المتاعب لتواجهه وحده، بل تواجه كل كلب يعيش في منطقة «المستنقعات الضحلة أو السبخ» (تايدووتر)، في ما بين «بيوجيت ساوند» و«سان دييجو»، ويتمتّع بعضلات قوية وشعر طويل يغطّي

---

١ الكلمات من قصيدة «Atavism» للشاعر الأمريكي John Myers O’Hara (1870 – 1944)

جسده ويبعث الدفء في أوصاله. وذلك لأن العاملين بالتنقيب قد وجدوا معدنًا لامعًا أصفر اللون في ظلمات القطب الشمالي، ثم قامت السفن البخارية وشركات النقل بالترويج لهذا الكشف، فاندفع الآلاف من الرجال إلى الشمال بحثًا عن الثروة. هؤلاء الرجال كانوا في أمس الحاجة إلى اصطحاب كلاب معهم، كلاب كبيرة الحجم، لها عضلات قوية تُمَكّنها من العمل الشاق، وفراء كثيف يحميها من الصقيع.

كان باك يعيش في منزل كبير، هو منزل القاضي ميللر، في وادي سانتا كلارا المشمس. يقع المبنى خلف الطريق، يكاد نصفه يختفي بين الأشجار التي تظهر من بينها فرجات بسيطة تتيح رؤية الشرفة الهادئة المتّسعة التي تحيط بالمنزل من جوانبه الأربعة. وكان الوصول إلى البيت من دروب مفروشة بالحصى، محاطة بمساحات واسعة من الحشائش القصيرة، وتعلوها أغصان متشابكة لأشجار حَور عالية. أما الفناء الخلفي فكان أكثر اتساعًا مما توحي به واجهة المنزل، ففيه عدد كبير من اسطبلات الخيل يشرف عليها ما يزيد على عشرة من السائسين

ومساعديهم، وصفوف من أكواخ الخدم المغطاة بالنباتات المتسلّقة، وصفوف أخرى من غرف ملحقة بالمنزل، تبدو للرائي بلا نهاية، ومساحات ممتدّة من كروم العنب والمراعي الخضراء وبساتين الفاكهة. وهناك أيضًا مضخّة لرفع المياه الجوفية، بالإضافة إلى خزان مياه اسمنتي، يغمر شباب المنزل أجسامهم فيه جلبًا للنشاط في الصباح، وهربًا من حرارة الشمس في فترة الظهيرة.

كان باك الآمر الناهي في ذلك المنزل، حيث وُلد وعاش سنوات عمره الأربع. نعم، عاشت هناك كلاب أخرى أيضًا، وهو أمر مُتوقَّع في مثل ذلك المنزل الكبير، لكنها جميعًا كانت غير ذات أهمية مقارنة بباك. كم من كلاب جاءت ثم رحلت، بعض الكلاب استقرت في الأكواخ المخصّصة لها في الفناء، وأخرى انزوت في أرجاء المنزل الكبير، ومنها توتس من سلالة «اليَك» الياباني، وإيزابيل المكسيكية ذات الجسم الخالي من الوبر. كم بدت له تلك الكلاب كائنات غريبة، إذ كانت نادرًا ما تتخطّى عتبة الدار، أو حتى تضع قوائمها على الأرض! وعلى جانب

آخر تواجد في الفناء عدد كبير، لا يقل عن عشرين، من فصيلة «فوكس تيرير»، وكان نباحها الحادّ يتوعّد توتس وإيزابيل، اللذين اعتادا أن يطلّا من النوافذ وقد احتميا بكتيبة من خادمات المنزل المسلّحات بالمكانس والمماسح!

أما باك فلم يكن بالكلب الذي يستلقي داخل المنزل، أو يستكين في أحد أوجار الكلاب، بل هو يرتع في المكان كلّه؛ يقفز في حوض السباحة أو يذهب للصيد مع ابنيّ القاضي ميللر، أو يرافق ابنتيه مولي وأليس في نزهات طويلة بعد غروب الشمس، أو في جولات في الصباح الباكر. أما في أمسيات الشتاء الباردة، فيربض باك عند قدمي القاضي أمام نار المدفأة المشتعلة في حجرة المكتبة. واعتاد باك أيضًا أن يحمل حفيديّ القاضي على ظهره، أو يلاعبهما متدحرجًا معهما على العشب، وعليه كذلك أن يرافقهما موفِّرًا لهما الحماية أثناء مغامراتهما التي تمتد من الفناء الخلفي حتى النافورة المقامة وسط اسطبلات الخيل، بل وما وراءها أيضًا، حيث تقع أحواض التوت وساحة ترويض الخيل. كان باك يتيه بنفسه خيلاءً

وهو يسير بين كلاب الفناء الأخرى، أما توتس وإيزابيل فقد تجاهلهما تمامًا، ولمَ لا يفعل، وهو الملك! حقًّا، كان باك ملكًا غير متوّج، يعلو على كل المخلوقات التي تزحف أو تسير أو تطير في مزرعة القاضي ميللر، بما في ذلك البشر!

والد باك هو إلمو، وهو كلب كبير الحجم من فصيلة سان برنارد، وقد ظلّ لسنوات طويلة رفيق القاضي فلا ينفصل عنه، وباك في ما يبدو يسير على نهج أبيه. ومع أنه لم يكن كبير الحجم مثل والده، وذلك لأن أمه كانت إسكوتلندية من فصيلة الكلب الراعي اسمها شيب، فإن اعتداده بنفسه نتيجة الحياة الطيبة التي عاشها والاحترام الذي حظي به ممن حوله، إضافة إلى تلك الأرطال المائة والأربعين التي تمثِّل وزنه، كل ذلك وضعه عن جدارة في مكانة كأنه ملك. عاش باك إذًا سنوات طفولته كأرستقراطي يتمتّع بحياة غاية في الرفاهية، وأكسبه ذلك اعتزازًا بالنفس يصل أحيانًا إلى درجة الغرور، كما يحدث لبعض السادة الذين يقيمون في الريف، بسبب الطابع الانعزالي لحياتهم.

لكنَ باك لم يرضَ لنفسه أن يكون مجرّد كلب منزلي مدلّل، فممارسة الصيد وحياة المرح والانطلاق التي عاشها مع الرفاق حافظت على رشاقته، ومنحته قوة في العضلات. أما السباحة فكانت له وسيلة لتجديد النشاط والحفاظ على الصحة في آن واحد، كما هي لكل السلالات المحبَّة للسباحة في الماء البارد.

هذا ما كانت عليه حياة الكلب باك في خريف العام ١٨٩٧، حينما اجتاح هوَس البحث عن الذهب منطقة كلوندايك، فاندفع الآلاف من البشر، من مختلف أنحاء العالم إلى المنطقة القطبية الشمالية. لم يعلم باك شيئًا عن ذلك، إذ لم يقرأ الجرائد، ولم يدرك أيضًا أن أحد مساعدي البستاني العاملين عند القاضي، واسمه مانويل، كان شخصًا غير جدير بالثقة. كان مانويل مهووسًا بالمقامرة، خصوصًا اللعبة المسماة «اليانصيب الصيني»، ومما زاد الأمر سوءًا أنه يصرّ على استخدام خطة محدّدة في اللعب، كان لزامًا أن تؤدّي به إلى الخسارة، إذ كانت تتطلّب

مبالغ من المال لا يمكن أن يوفّرها أجر مساعد بستاني، عليه أن يفي باحتياجات زوجة وأبناء.

ثم جاءت ليلة الخيانة التي لا تُنسَى! كان القاضي مجتمعًا بأعضاء رابطة منتجي الزبيب، على حين انشغل شباب المزرعة في تنظيم بعض المسابقات الرياضية، فلم يرَ أحد منهم مانويل وهو يصطحب الكلب إلى خارج المكان، وقد خُيِّل لباك أنهما ذاهبان في نزهة. لم يرهما سوى رجل واحد حينما وصلا إلى محطة كولدج بارك الصغيرة، التي نادرًا ما تتوقّف القطارات على رصيفها. وتحدَّث ذلك الرجل مع مانويل، ثم خشخشت النقود وهي تنتقل بين أيديهما.

قال الغريب بلهجة جافّة:

- «يُستحسن أن تُغَلِّف البضاعة قبل تسليمها».

عندئذٍ قام مانويل بلف حبل غليظ تحت الطوق المحيط برقبة باك، ثم قال للغريب:

- «يمكنك التحكّم فيه بجذبه من هنا»، فغمغم الغريب بخشونة موافقًا.

لقد قبل باك التفاف الحبل حول رقبته بهدوء، رغم عدم اعتياده على ذلك، لأنه تعلّم فيما مضى من عمره أن يثق في من يعرفهم من البشر، وأن يتوقّع منهم حسن التصرّف لتمتّعهم بحكمة تفوق إمكاناته بكثير. وعندما رأى طرفي الحبل الغليظ يستقران في يدي الغريب، زمجر ساخطًا. لقد صوّر له كبرياؤه أن إعلان سخطه سيجعل مرافقَيه يسارعان لإرضائه، غير أنه فوجئ بالحبل وهو يضيق على رقبته حتى يكاد يمنعه من التنفّس. استبدّ به الغضب، فاندفع يقفز في اتجاه الرجل، غير أنه فوجئ بذلك الغريب يتقدّم قبل أن يصل إليه، ويقبض على عنقه بقوّة، ثم يلقيه بحركة سريعة على ظهره. ثم أخذ الحبل يضيق على رقبة باك بلا رحمة، بينما يحاول أن يقاوم وجسده مشتعل بالغضب، ولسانه يتدلى من بين شدقيه، وصدره الضخم يعلو ويهبط مع لهاثه بلا طائل. لم يسبق في حياته كلّها أن تلقى مثل هذه المعاملة المُهينة، ولم يشعر بمثل هذا

الغضب، لكن قواه خارت فجأة، وغامت عيناه، ولم يدرِ بنفسه إلّا وهو يُلقى في عربة الأمتعة، قبل أن يغادر القطار المحطة.

عندما عاد له وعيه وشعر بألمٍ في لسانه، وكان جسده يترجرج بما يدل على أنه داخل وسيلة نقل ما، وبعد لحظات سمع باك صوت صفير القاطرة وهي تعبر أحد التقاطعات، فأدرك أين هو، فقد سافر كثيرًا في صحبة القاضي ومن السهل عليه أن يدرك أنه في عربة الأمتعة بالقطار. عندئذٍ، فتح عينيه وقد تبدّى فيهما غضب جامح لملك مخطوف. اندفع الخاطف مادًّا يده إلى عنق باك، لكن الأخير كان أسرع منه، وانطبق فكاه على تلك اليد الآثمة، ولم يفلتاها إلا حين خارت قواه مرة أخرى.

جاء حارس الأمتعة يستطلع الأمر بعد أن جذب انتباهه صوت المعركة الصغيرة التي دارت بين الرجل والكلب، فقال الخاطف وهو يحاول إخفاء يده المصابة:

- «إنه يعاني من بعض النوبات العصبية، وأنا في طريقي إلى «فريسكو»، بتكليف من صاحبه، لعرضه على طبيب كلاب ممتاز يرى أنه قادر على علاجه».

تحدّث الخاطف عن تلك الرحلة الليلية في ما بعد، بأسلوب بليغ مؤثّر، وذلك في مخزن ملحق بإحدى الحانات الواقعة على الشاطئ في مدينة سان فرانسيسكو، وكان مما قاله في لهجة متذمّرة:

- «لم أحصل إلا على خمسين دولارًا، ولن أفعلها ثانية ولو أُعطيت ألفًا، نقدًا فوريًا».

كان الرجل يتكلّم وقد التفّت يده بمنديل غارق في الدماء، وتمزّقت الناحية اليمنى من بنطلونه، في ما بين الركبة والكاحل.

وسأله صاحب الحانة:

- «وكم أخذ الرجل الآخر، شريكك في تلك المهمة»؟

وجاء الرد:

- «أخذ مائة كاملة، لم يرضَ بأقل من ذلك ولو ببنس واحد، فما أسوأ حظي».

فقال صاحب الحانة متفكرًا:

- «إذًا التكلفة مائة وخمسون دولارًا. وإنني لعلى يقين أنه يستحقها».

حلّ الخاطف الرباط المشبع بالدم، ونظر إلى يده المتهتّكة، وقال:

- «إذا لم يُصبني داء الكَلَبْ...».

فقاطعه صاحب الحانة، وهو يضحك:

- «فذلك معناه أنك سوف تموت بطريقة أخرى». ثم أضاف:

«والآن ساعدني في إنزال البضاعة، قبل أن تغادر».

حاول باك أن يواجه مُعَذّبيه، لكن كيف له أن يفعل ذلك وهو يشعر بالدوار ويعاني من آلام لا تُحتمل في حلقه ولسانه، بل إن روحه تكاد تُزهق. لقد طرحوه أرضًا عدة مرات، وكادوا يخنقونه وهم يعالجون

الطوق النحاسي الثقيل حول رقبته حتى تمكّنوا أخيرًا من بَردِه وخلعه. وبعد أن أزالوا الحبل الغليظ الذي لفه مانويل، قذفوا به في صندوق شحن يشبه قفص الحيوانات.

هناك رقد باك الساعات الباقية من تلك الليلة المجهِدة، محاولًا تهدئة ثائرته ومداواة كبريائه الجريحة. لم يستطع فهم ما يحدث. تُرى ماذا يريد هؤلاء الغرباء منه؟ ولماذا يحبسونه في ذلك الصندوق الضيّق؟ لم يعرف السبب، غير أن شعورًا مبهمًا بقرب حلول كارثة ما أثقل كاهله. لقد انفتح الباب على مصراعيه عدة مرات في تلك الليلة، وفي كل مرة ينتصب باك على قدميه، وهو يأمل أن يرى القاضي، أو على الأقل أحد شباب المزرعة، لكنه لا يجد إلا الوجه المنتفخ لصاحب الحانة وهو يحدّق فيه، على ضوء خافت لشمعة من الشحم، فيتحوّل نباح الارتياح الذي يضطرم في حلقه إلى زمجرة شرسة.

تركه صاحب الحانة من دون إزعاج لبعض الوقت، وفي صباح اليوم التالي دخل أربعة رجال آخرون حملوا الصندوق إلى الخارج. رآهم باك

عصبة أخرى من الأشرار، بثيابهم الرّثّة ومظهرهم المُزري، فثارت ثائرته وحاول الانقضاض عليهم عدة مرات من خلال قضبان القفص. ضحك الرجال في سخرية، وبدأوا ينغزونه بعصيّ في أيديهم، فاستبد به الغيظ وحاول أن ينشب أسنانه في تلك العصيّ، إلى أن أدرك أن هذا بالتحديد ما يحاولون استدراجه إلى فعله. عندئذٍ انزوى متجهِّمًا في أحد الأركان، ولم يُبدِ أي اعتراض عندما رفعوا الصندوق - وهو بداخله - ووضعوه في شاحنة، انطلقت به في رحلة تنقّل فيها بين عدّة أيادٍ. استلمه في البداية موظفو مكتب البريد المستعجل، حيث أودعوه في مركبة تجرّها الخيل، ثم حملته شاحنة أخرى مع تشكيلة من الصناديق والطرود المختلفة، على عبّارة تسير بالبخار، ومن تلك العبّارة أخذوه في شاحنة إلى إحدى محطات القطار الكبيرة، حيث وضعوه في عربة نقل البضائع.

ظلّت تلك العربة تجرّها على القضبان قاطرات ذات صرير مزعج ليومين وليلتين، وطوال تلك المدة لم يتناول باك شيئًا من الطعام أو الشراب. في بداية الرحلة واجه مضايقات العاملين في القطار بالزمجرة،

فعمدوا إلى إغاظته، وعندما أخذ يقذف بنفسه مصطدمًا بأعمدة الصندوق، على حين ارتعش جسمه وغطى الزبد شدقيه من الغيظ ضحكوا وقلدوا نباحه وزمجرته مستهزئين. نعم، نبحوا وزمجروا كالكلاب الضالّة، وماءوا كالقطط، ورفرفوا بأيديهم كالطيور، وأصدروا أصواتًا كنعيق الغربان. كان الأمر في رأيه غاية في السخافة، ومهينًا إلى أقصى حد، مما جعل غضبه يتصاعد. ورغم أن الجوع لم يضايقه كثيرًا، فإن نقص الماء سبب له معاناة قاسية، زادت من تصاعد غضبه، وأصابته بالتهاب في حلقه ولسانه المتشقِّقَين بسبب العطش. وانتهى به الأمر إلى الإصابة بالحمى.

ورغم كل شيء، فقد شعر باك بالراحة لخلع الحبل من حول رقبته، ذلك الحبل الذي رجّح كفتهم في الصراع بينه وبينهم. أما الآن فسيتمكّن هو من النيل منهم، وقد استقرّ عزمه على ألا يدع أحدًا يضع حبلًا آخر حول رقبته أبدًا. وفي تلك اللحظة، بعد أن قضى يومين من العذاب، من دون طعام أو شراب، تراكم بداخله الغضب منذرًا بالشر كل من قد

تحدِّثه نفسه بالتعرض له أو مضايقته. لقد تحوّل إلى كتلة من الغضب الشيطاني بعينين بلون الدم، ولو رآه القاضي ميللر نفسه لما تَعَرَّف عليه، أما المشرفون في عربة البضائع فقد تنفّسوا الصعداء عندما ألقوا به خارج القطار في محطة «سياتل».

أربعة رجال حملوا الصندوق بحرص من المركبة التي أقلته إلى فناء صغير ذي جدران عالية، حيث وجدوا رجلًا قوي البنية يرتدي سترة حمراء، ذات فتحة عنق واسعة، وقَّع للسائق باستلام حمولته. توقّع باك أن ذلك الرجل هو من سيتولى تكديره وتنغيص حياته من جديد، فتكوّم متنمِّرًا خلف قضبان القفص، أما الرجل فقد ارتسمت على وجهه ابتسامة كريهة، بينما يتناول بإحدى يديه بَلطة صغيرة وبالأخرى هراوة ثقيلة.

تساءل السائق:

- «ألن تُخرجه الآن من القفص»؟

فأجاب الرجل ذو السترة الحمراء:

- «بالطبع». ثم أدخل البلطة بحركة متلصِّصة إلى داخل الصندوق.

تفرّق الرجال في التو واللحظة متحلّقين حول الصندوق، واتخذ كل منهم موقعًا مناسبًا آمنًا أعلى الجدار ليرقب ما سيحدث. اندفع باك هائجًا يغرز أسنانه في ألواح الخشب التي بدأت تتكسّر، ويصارعها، وكلما هوى الرجل بالبلطة من الخارج كان هو في الموضع نفسه في الداخل يدمدم ويزمجر، وما من شك أن رغبته المشتعلة بالغضب في الخروج من الصندوق لم تكن أقل من الإصرار الواثق الهادئ للرجل ذي السترة الحمراء على إخراجه. وما إن تمكّن الرجل من فتح مساحة تكفي لخروج باك حتى ألقى بالبلطة على الأرض ونقل الهراوة من يده اليسرى إلى اليمنى، ثم قال:

- «والآن، هيا إلى الخارج أيها الشيطان الأحمر العينين».

بدا باك حقًّا كشيطان أحمر العينين وهو يندفع في تحفز إلى الخارج، بوبره المنتفش وشدقيه المُغطيين بالزَبد، ولمعة الجنون في عينيه الحمراوين. هكذا انطلق مائة وأربعون رطلًا مشحونة بالغضب والحرمان ليومين وليلتين مباشرة في اتجاه الرجل ذي السترة الحمراء،

وبينما هو يقفز في الهواء، وقد كاد فكّاه ينطبقان على جسد الرجل، تلقى ضربة قوية شلّت حركته وانطبق فكاه في اصطكاك مؤلم، ثم دار جسده في الهواء وسقط فارتطم ظهره وجانبه بالأرض. لم يفهم باك ما حدث، فلم يسبق له أن ضُرب بهراوة من قبل، لكنه على كل حال انتفض قائمًا على قدميه مرة أخرى وانطلق في هجمة أخرى، وهو يطلق صوتًا أقرب إلى الصراخ منه إلى النباح. جاءته الصدمة مرة أخرى، فتهاوى مُتكوِّمًا على الأرض، ورغم إدراكه هذه المرة أنها الهراوة، فقد بلغ به الجنون مبلغًا لم يترك له أي مجال للتراجع، وهكذا ظل يقذف نفسه لمرات ومرات، ويتلقّى صدمة قاصمة تلو الأخرى من تلك الهراوة.

زحف باك على قدميه بعد واحدة من تلك الصدمات القاسية، وقد أصابه الدوار فلم يعد قادرًا على المزيد من الهجمات، وأخذ يسير مترنِّحًا، والدم يسيل من أنفه وفمه وأذنيه، وقد تناثرت على فرائه الجميل بقع من اللعاب المختلط بالدم. عندئذٍ تقدّم الرجل ذو السترة الحمراء وعاجله بضربة مريعة، تعمد أن تهوي على أنفه. كانت الآلام التي سبق

أن تحمّلها باك لا ترقى لشيء من العذاب الرهيب الذي شعر به في تلك اللحظة، فاندفع مهاجمًا غريمه، وقد انطلقت منه صيحة تشبه زئير الأسد في قوّتها. أما الرجل الذي نقل الهراوة بخفة من يمناه إلى يسراه فقد قبض على فكه السفلي، وأخذ يطوح به في الهواء، فدار باك دورة كاملة ثم نصف دورة تهاوى بعدها على الأرض حيث اصطدم رأسه وصدره.

اندفع باك للمرة الأخيرة، فعاجله الرجل بالضربة الماكرة القاضية التي تعمد تأجيلها طوال ذلك الوقت، فلم يكن أمام باك إلا أن يتهاوى فاقدًا وعيه.

صاح أحد الرجال بحماسة:

- «من الواضح أن هذا الرجل يجيد ترويض الكلاب».

وعلّق السائق على ذلك وهو يصعد إلى مركبته، فقال:

- «أما أنا فأفضّل أن أُروِّض واحدًا من الخيول البرّية، ولا مانع أن يكونا اثنين في أيام الآحاد». ثم انطلق بمركبته التي تجرّها الخيل.

استعاد باك حواسه بعد قليل من الوقت، لكنه لم يسترد شيئًا من قواه، فظل راقدًا في مكانه يراقب الرجل ذا السترة الحمراء.

أمسك الرجل بالخطاب المرسل من صاحب الحانة - في ما يخصّ الشحنة المرسلة - وقرأ بصوت خافت: «اسم الكلب هو باك»، فاقترب من باك وقال بلطف: «عزيزي باك، الآن وقد انتهت تلك المعركة، فأفضل ما يمكننا عمله هو أن ننسى الموضوع. أنت الآن تعرف مكانك، أما أنا فأعرف مكانتي تمامًا. كن كلبًا مطيعًا، ستجد كل شيء على ما تحب، أما إذا لم تُطعني، فستُعامل أسوأ معاملة، مفهوم»؟

قام الرجل أثناء كلامه بالتربيت على تلك الرأس التي كاد يسحقها بلا رحمة منذ قليل. ورغم أن شعر باك وقف لتلك اللمسة، فقد تحمّلها من دون اعتراض، وعندما أحضر له الرجل الماء شربه بلهفة، ثم التهم مستمتعًا بكل قطعة منها، وجبة من اللحم النِيْءِ قدّمها له الرجل.

أدرك باك أنه هُزم، لكنه لم ينكسر. لقد تعلّم أنه لا فرصة له للفوز في مواجهة رجل في يده هراوة، ولم ينس ذلك الدرس طيلة حياته. كانت

تلك المواجهة مع الهراوة تجربة كاشفة، من خلالها استوعب سيطرة قانون الحياة البدائية، ومن حسن الحظِّ أنه استوعب الأمر في الوقت المناسب. لقد أخذت حقائق الحياة منذ تلك اللحظة مظهرًا أكثر قسوة، وقد واجه تلك القسوة بشجاعة، وأيضًا استدعى كل الدهاء الكامن في طبيعته الأصلية لكي يتمكّن من ذلك.

وبدأ المكان يستقبل كلابًا أخرى يومًا بعد يوم، جاء بعضها في أقفاص وأُخرى تجرّها حبال حول أعناقها، بعضها تقبّل الأمر بسلاسة وبعضها جاء غاضبًا مزمجرًا مثلما جاء باك من قبل. وقد راقبها باك جميعًا وهي تنضوي تحت سطوة الرجل ذي السترة الحمراء. وفي كل تجربة قاسية لهؤلاء القادمين يزداد الدرس الجديد وضوحًا ورسوخًا: «الرجل الذي يحمل هراوة هو الذي يضع القانون، وهو سيّد يجب أن يُطاع، حتى ولو لم يعجبك الأمر». والحق أن باك لم ينزلق أبدًا إلى محاولة التقرب للرجل ذي السترة الحمراء، رغم أنه رأى بعض الكلاب المهزومة تحاول تملّق الرجل، فتهز ذيولها عند رؤيته، وتلعق يديه. وقد

شهد أيضًا كلبًا لم يقبل بالمهادنة ولا بالطاعة، حتى فقد حياته في النهاية، وهو يقاتل رافضًا الخضوع.

من حين لآخر يجيء رجال غرباء، مختلفو الأشكال والأزياء، فيتحدّثون مع الرجل ذي السترة الحمراء بحماسة ومودّة، ثم يدفعون بعض النقود، ويغادرون المكان وقد اصطحبوا معهم واحدًا أو أكثر من الكلاب. وفي كل مرة يسأل باك نفسه متعجّبًا: «أين ذهبوا؟»، خصوصًا وقد لاحظ أن أحدًا منهم لم يعُد. كان الخوف من المستقبل المجهول يسيطر عليه، لذا يشعر بالسعادة في كل مرة لا يتم اختياره للذهاب مع الذاهبين.

وجاء دور باك في نهاية الأمر. وصل إلى الفناء يومًا رجل كبير السن، ذاوي العود، يتكلّم إنجليزية متكسّرة بأسلوب فظ، ويتفوّه بكلمات غريبة لم يستوعب باك معانيها، وعندما وقعت عيناه عليه صاح قائلًا:

- «يا إلهي، هذا الكلب رائع، هو بالضبط ما أريد. كم ثمنه؟».

فجاء الرد فوريًا من الرجل ذي السترة الحمراء:

– «ثلاثمائة دولار، وهو سعر خاصّ لك، فالكلب يستحقّ أكثر من هذا بكثير. على كل حال، لا مشكلة في الأمر، فالحكومة الكندية هي التي تدفع. أليس كذلك يا ييرّو؟».

ابتسم ييرّو ابتسامة واسعة، فالسعر مناسب للغاية لمثل هذا الكلب الممتاز، لا سيما وقد ارتفعت أسعار الكلاب إلى عنان السماء، نظرًا للطلب المتزايد عليها. ولن تكون الحكومة الكندية – التي يعمل لحسابها – خاسرة بمثل تلك الصفقة، بل إن استخدامها لهذا الكلب سيزيد من كفاءة نظامها البريدي. ييرو في الواقع خبير بأنواع الكلاب، وعندما رأى باك أدرك على الفور أنه كلب لا يوجد مثله إلا قليل، بل «أقل القليل» كما قال مُحَدِّثًا نفسه.

رأى باك النقود تنتقل بين الرجلين، ولم يندهش كثيرًا عندما قاده ييرو، ومعهما كلبة لطيفة من فصيلة نيوفاوندلاند اسمها كيرلي، إلى خارج المكان. كانت هذه اللحظة هي آخر ما رأى باك من الرجل ذي السترة الحمراء، وعندما اصطحبهما ييرو إلى ظهر السفينة نارول وأخذ

باك وكيرلي يتطلّعان إلى معالم مدينة سياتل وهي تختفي عن ناظريهما، كان هذا آخر ما شاهد باك من أرض الجنوب الدافئة. هبط بهما يـيرو إلى بطن السفينة حيث سلمهما إلى رجل ضخم الجثة أسمر البشرة اسمه فرانسوا، وهو كندي فرنسي، ينحدر من سلالة من السكان الأصليين، لذلك كانت بشرته عميقة السمرة بالمقارنة ببشرة يـيرو، الذي كان فرنسيًا كنديًا أيضًا. مثَّل الرجلان لباك نموذجًا لم يلتقِ به من قبل، وسيلتقي بكثير من أمثالهما في ما بعد. ورغم أن باك لم يشعر ناحيتهما بأي عاطفة، فقد استقرّ في نفسه شعور عميق بالاحترام لهما في ما بعد، إذ أدرك بعد قليل من الوقت أنهما يتّصفان بالهدوء واللطف، وأنهما حريصان على تحقيق العدل، وهما أيضًا على قدرٍ عالٍ من الفطنة، مما يجعل من الصعب على الكلاب خداعهما.

انضم باك وكيرلي إلى كلبين آخرين على السطح الداخلي للسفينة، أحدهما ثلجيّ البياض جلبه قبطان متخصّص في صيد الحيتان، من منطقة «سبيتزبيرجن» في المحيط المتجمّد الشمالي، ثم صحب فريقًا

لدراسة جيولوجية في منطقة بارنز المقفرة. كان ذلك الكلب ودودًا بطريقة غاية في الدهاء، فهو يبتسم في وجه صديقه بينما يخطّط لخدعة ما، ومن ذلك مثلًا أنه سرق جزءًا من طعام باك في الوجبة الأولى التي قُدِّمت لهما. وبينما باك يتأهّب للانطلاق لمعاقبته على فعلته، سمع طرف السوط الذي يحمله فرانسوا يخفق في الهواء صارخًا ويستقر على ظهر الجاني، فلم يبقَ لباك عندئذٍ سوى أن يستردّ قطعة العظم المسلوبة. «هذا هو العدل»، هكذا قال باك في نفسه، وبدأ منذ تلك اللحظة يشعر بالاحترام والإكبار تجاه فرانسوا، رغم أصله المختلط.

أما الكلب الآخر، فلم يقترب من أحد ولم يدَع أحدًا يقترب منه، وأيضًا لم يحاول أن يسرق طعام القادمين الجدد. كان شَكِسًا متجهّمًا، وقد أوضح لكيرلي بما لا يحتمل الشك أنه يرغب في أن يُترك وشأنه، بل إن المشكلات ستتوالى إذا لم يُترك وشأنه! لم يفعل ديـﷺ، وهذا هو اسمه، شيئًا سوى الأكل والنوم، والتثاؤب بين هذا وذاك. ولم يشِدّ انتباهه شيء، وعندما عبرت السفينة خليج الملكة تشارلوت، فتمايلت

وتأرجحت، كأنما مسّتها الشياطين، بلغ التوتر بباك وكيرلي مبلغًا كبيرًا حتى كاد الخوف يصيبهما بالجنون. أما ديـرضي الله عنهم فلم يزد على أن رفع رأسه كأنما ضايقه شيء، وألقى عليهما نظرة غير مبالية، ثم تثاءب وعاد إلى نومه.

ظلّت محركات السفينة لأيامٍ وليالٍ متوالية تدور على وقع الدقات التي لا تنتهي لمروحة الدفع، ورغم أن الأيام التي تمرّ بدت متشابهة إلى حدٍّ كبيرٍ، فقد اتضح لباك أن الطقس يزداد برودة يومًا بعد يوم. وفي صباح أحد الأيام، توقّفت مروحة الدفع عن العمل، وساد السفينة نارول حالة من الحماسة. وقد شعر باك بذلك وكذلك بقية الكلاب، وأدركوا جميعًا أن تغييرًا ما على وشك أن يحدث. ساقهم فرانسوا إلى ظهر المركب، ومع الخطوة الأولى لباك على الظهر البارد وجد قوائمه تغوص في شيء لين كأنه طين، فتراجع إلى الخلف وهو يشهق مندهشًا. ثم لاحظ هذه المادة البيضاء وهي تتساقط في الهواء من حوله، فهزّ جسمه، غير أن المزيد منها أخذ يتساقط عليه. حاول باك استنشاقه بفضول، ثم لعق

بعضًا منه بلسانه، فأحسَّ بلسعة حادة اختفت بعد ثوانٍ قليلة. اعتراه شيء من الارتباك والحيرة، فحاول إعادة التجربة مرة أخرى، ووصل إلى النتيجة نفسها. وفجأة انفجر الآخرون المراقبون للموقف في ضحك صاخب، لم يفهم باك سببه، غير أن الخجل اعتراه. لقد كانت هذه أول مرة يرى فيها تساقط الثلج.

٢- قانون الهراوة والناب

اليوم الأول لباك على شاطئ دايي كان أشبه بالكابوس، فكل لحظة فيها مفاجآت وصدمات. لقد اِنتُزع فجأة من قلب الحياة المدنية المتحضِّرة، وأُلقي به في أتون حياة أخرى ذات طابع بدائي. ترك الحياة الكسولة تحت دفء الشمس، من دون عمل سوى التسكّع، والتململ، إلى حياة لا سلام فيها ولا راحة، ولا إحساس بالأمان ولو لدقيقة واحدة. إنها حياة مُربكة مليئة بالحوادث، وكل لحظة فيها تهدّده بأن يفقد أحد أطرافه، أو حتى أن يفقد حياته نفسها. لذلك عليه أن يكون منتبهًا على الدوام، فهذه الكلاب وهؤلاء الرجال ليسوا من أبناء المدن، بل هم جميعًا يتّصفون بالهمجيّة ولا يعرفون أي قانون سوى قانون الهراوة والناب.

لم يرَ باك من قبل كلابًا تتعارك مثل تلك الكلاب التي تشبه الذئاب، وقد تعلّم درسًا لا يُنسى، ومن حسن الحظِّ أنه لم يكن طرفًا في ما حدث، وإلا لما أُتيحت له الفرصة لأن يتعلّم ذلك الدرس، أما الضحية فكانت

كيرلي. بدأت الحكاية عندما استقرّت المجموعة كلّها بالقرب من أحد مخازن حطب التدفئة، ثم بدا لكيرلي - اللطيفة - أن تتقرّب لكلب في المجموعة من فصيلة الهاسكي، يماثل في حجمه ذئبًا كامل النمو، وإن كان أقل من نصف حجمها هي. ومن دون أي إنذار، فوجئ الجميع بذلك الكلب ينقض عليها بسرعة ومضة ضوئية، ثم سمعوا صوت اصطكاك أسنان كأنها من المعدن، وبعد وثبة أخرى غاية في النعومة والسرعة، رأى باك وجه كيرلي وقد تهتّك في ما بين عينيها وفكّيها!

«هاجِم ثم اقفِز مبتعدًا». هذا هو أسلوب الذئاب في القتال، غير أن الأمر لم ينته عند هذا الحد، إذ فوجئ باك بما يقرُب من أربعين كلبًا من فصيلة الهاسكي تقترب ثم تتراصّ على شكل دائرة مغلقة تحيط بالكلبين المتعاركين، وتتطلّع إليهما في صمت. لم يستوعب باك معنى ذلك الترقّب والاهتمام إلا عندما حاولت كيرلي أن تردّ الهجمة التي تعرّضت لها. لقد انقضّت عليه بسرعة لكنه نجح في تجنّبها، وعندما اندفعت مرة ثانية تلقّاها بصدره بطريقة غير متوقّعة جعلتها تسقط أرضًا بعد أن فقدت

توازنها، وللأسف لم تستطع استعادته. أدرك باك حينئذٍ في ما كان تحلُّق الكلاب وترقّبها. لقد أغلقوا الدائرة عليها وهم يزمجرون بصوت يشبه العواء، ثم أخذ صراخها الملتاع، ينفذ من بين الأجساد الهائجة المتلاحمة.

كان الأمر مفاجئًا وخارجًا عن حدود أي توقّع، مما جعل الذهول يسيطر على باك. ثم رأى سبيتز يخرج لسانه القرمزي اللون، ضاحكًا، أما فرانسوا فقد اندفع داخل حلقة الكلاب وفي يده بلطة يُلَوِّح بها، وانطلق معه ثلاثة رجال آخرون يحملون هراوات لمساعدته في تفريق الجمع. لم يستغرق الأمر أكثر من دقيقتين، بين سقوط كيرلي، وانصراف آخر مهاجميها تحت وقع الضرب بالهراوة، لكنه رآها هناك ساكنة بلا حراك، بل جيفة نافقة، وقد تقطّعت أوصالها وتناثرت بين قطع الجليد المتكوّمة الغارقة في الدماء. أما فرانسوا صاحب البشرة الداكنة السمرة، فقد وقف متسمّرًا يطلّ عليها، وهو يلعن ويسبّ بصوت مُروِّع. لقد تكرّر هذا المشهد المرعب في أحلام باك مرات عدة في ما بعد، متسبّبًا في إزعاجه

غاية الإزعاج. لقد أدرك الآن أن لا عدالة في الحياة، وأنه إذا سقط أحدهم مرّة، فهذه هي النهاية، ولن تقوم له قائمة بعدها. إذًا عليه ألا يسقط أبدًا. وظهر سبيتز مرة أخرى ضاحكًا، فشعر باك تجاهه بكراهية عميقة، مريرة لا تنقضي.

وتلقّى باك الصدمة الثانية قبل أن يتجاوز صدمة موت كيرلي المأساوية، فبعد أيام قليلة ألبسه فرانسوا لجامًا، يشبه ذلك الذي رأى السائسين العاملين في مزرعة القاضي ميللر يطوِّقون به الخيل. وكما اعتادت الخيل أن تعمل في المزرعة صار عليه الآن أن يعمل. وعمله هو أن يجُرّ فرانسوا على ظهر الزلّاجة إلى الغابة التي تحيط بالوادي الذي أقاموا فيه المُخَيَّم، ليعودا بحمل وفير من الحطب لنار التدفئة. ورغم أنه شعر بشيء من جرح الكرامة، لقيامه بمهمّات كلاب الجَرّ، فقد كان أكثر حكمة من أن يعترض على ذلك الوضع. لقد قَبِل شدِّ اللجام على جسده، وبذل أقصى ما يستطيع لأداء المهمّة المطلوبة منه، رغم غرابة الأمر وجِدَّته بالنسبة له. كان فرانسوا رجلًا صارمًا يطلب الطاعة الفورية،

وينالها في الغالب بفضل السوط الذي لا يفارق يده. أما ديـ ﷺ، الذي كان موضعه الأقرب للزلاجة، فاعتاد أن يلكز باك في إحدى قائمتيه الخلفيتين إذا ارتكب أي خطأ. أما سبيتز فكان في المقدّمة، وذلك بسبب خبرته السابقة، ولم يكن موقعه الأمامي يسمح له بأن يُصلح لباك أخطاءه، غير أنه كان يزمجر من حين لآخر للتعبير عن عدم رضاه، أو يتعمّد بدهاء أن يرمي بنفسه على سيور الزلّاجة ليُرغم باك على تصحيح مساره في الجري. وقد تعلّم باك المطلوب منه بسرعة وسهولة، وتحت المتابعة الدقيقة من زميليه ومن فرانسوا حقّق تقدمًا ملحوظًا. وقبل أن يعودوا من الغابة تعلم باك ما يكفي ليقف عندما يسمع أحدهم يصيح به «هووو»، وينطلق عندما يسمع «ماش»، وأن يدور بمهارة في المنحنيات، وأنه عندما تكون الزلّاجة تنحدر مسرعة من أعلى التل، محملة بالبضائع، فعليه أن يُخلي الطريق أمام زميله الملاصق للزلاجة حتى لا تصدمهم.

قال فرانسوا لـييرو بعد عودتهم:

- «هذه الكلاب الثلاثة ممتازة. وباك تعلَّم بسرعة، وهو يسحب الزلّاجة بمهارة فائقة».

كان بيرو يرغب في الرحيل بسرعة لأداء عمله في توصيل البريد، وقد تمكّن بحلول منتصف نهار ذلك اليوم من إحضار كلبين آخرين، من فصيلة الهاسكي هما بيللي وچو. ورغم أنهما كانا أخوين من أم واحدة، فقد اختلفت طبيعتاهما كاختلاف الليل والنهار. كان العيب الوحيد في بيللي هو المبالغة في الطيبة، أما چو فكان نقيض ذلك تمامًا، فهو انطوائي يميل إلى الشراسة، ويزوم بشكل شبه مستمر، على حين يرتسم الشر في عينيه. استقبلهما باك بحفاوة بصفتهما زميلين جديدين، وتجاهلهما ديﷺ تمامًا. أما سبيتز فقد قرّر أن يرهبهما واحدًا بعد الآخر ليبسط سيطرته عليهما. هز بيللي ذَنبه باستكانة، في مواجهة سبيتز، ثم استدار جاريًا إذ لم تُجدِ استكانته، وأخيرًا تصاعد نباحه - المستكين أيضًا - عندما أنشب سبيتز أسنانه الحادة في خاصرته. الأمر مع چو كان مختلفًا، فكلما دار سبيتز حوله متربصًا، التفت بسرعة على كعبيه، في مواجهته وقد

انبعثت من عينيه لمعة شيطانية وانتفش الشعر حول وجهه وتمدّدت أذناه بمحاذاة جسمه في انتباه، وتصاعد صوته يزوم من شفتين متقلّصتين، وأخذ فكاه يصطكان بصوت يهدد بانقضاض سريع. بعث المشهد الرعب في أوصال سبيتز بما جسّده من عدوانية مستعدة للقتال، فتراجع عن محاولة إرهابه، غير أنه حاول التغطية على فشله، فاستدار إلى المسالم المُتأوِّه بيللي وأخذ يدفع به إلى حدود المُخيَّم.

نجح ييرو في المساء في الحصول على كلب آخر، نحيل وهزيل من فصيلة «الهاسكي»، وعلى وجهه ندوب من معارك قديمة، وقد فقد إحدى عينيه وينبعث من الأخرى لمعان ينذر بمهارة عالية تدعو إلى الاحترام. كان ذلك الكلب يُدعى سول - ليكس، أي «الغاضب». وهو مثل ديﷺ لا يطلب شيئًا ولا يعطي شيئًا ولا يتوقّع شيئًا، وعندما سار ببطء مُتَعمّد في وسط المجموعة تركه الجميع وشأنه، بما فيهم سبيتز. ولم يدرك باك، لسوء حظّه، أن «الغاضب» يكره أن يقترب منه أحد من ناحية عينه التي لا يمكنها الرؤية. لقد ارتكب باك خطأً فادحًا من دون

قصد، ولم يدرك نتيجة ذلك العمل الطائش إلا عندما انقض عليه سول – ليكس، وأنشب مخالبه في كتفه، مُسبِّبًا له جرحًا غائرًا يكاد يصل إلى عظامه، طوله عدة بوصات. ومنذ ذلك الحين، تجنّب باك الاقتراب منه من تلك الزاوية، فلم تشُب صحبتهما أي شائبة بعد ذلك. بدا لباك أن الطموح الوحيد لهذين الزميلين هو أن يُتركا وشأنهما، لكنه أدرك في ما بعد أن كليهما امتلك طموحًا آخر أكثر أهمية.

واجه باك في تلك الليلة مشكلة كبيرة تتعلّق بالنوم. لقد رأى خيمة ييرو وفرانسوا وقد أنارتها شمعة، تُشعّ بالدفء وسط السهل المفروش بالخيام البيضاء، فدخلها باعتبار ذلك أمرًا مفروغًا منه، لكنه فوجئ بالرجلين يمطرانه باللعنات ويرشقانه بأدوات الطهو، فاضطُر إلى الخروج بسرعة مُرتاعًا مهانًا. عندئذٍ هاجمته ريح قارصة البرودة تهب في الخارج، ولسعه البرد بحدّة أشد في جرح كتفه النازف. رقد باك على الجليد طلبًا للنوم، لكن الصقيع المتساقط سرعان ما جعل جسمه كلّه يرتعش من البرودة، فانبعث على أقدامه مرة أخرى. أخذ باك يتجوّل في

المُخيم، باحثًا عن موضع دافئ، وقد سيطر عليه الغم والتعاسة، فوجد أن البرودة تغمر المكان كله. وفي حيرته تلك، تعرّض لمضايقات من بعض الكلاب الشرسة، فأخذ يزوم وينفش وبر رقبته، كما رأى غيره يفعل فانفضّوا من حوله من دون إيذائه.

وفي النهاية طرأت على ذهنه فكرة، ألا وهي أن يذهب باحثًا عن رفاقه، ويرى كيف واجهوا هذه المشكلة، لكنه لدهشته الشديدة لم يجد أحدًا منهم! أخذ يتجوّل في المخيم الكبير، باحثًا عنهم، لكنه لم يصل لشيء، فأين ذهبوا يا تُرى؟ هل هم في الخيمة؟ لا يُمكن أن يكون ذلك ما حدث، وإلا ما طردوه منها، فأين هم إذًا؟ أخذ باك يدور حول الخيمة بلا هدف، يلفّه شعور عميق بالوحشة، وقد تهدّل ذيله وسرت رعشة البرد في جسمه. وفجأة، بدأ الجليد ينحسر من تحت قوائمه الأربع، ثم وجد باك نفسه يغوص إلى أسفل، وشيء ما يترجرج تحت أقدامه. تراجع باك إلى الخلف مزمجرًا منتفش الشعر، متخوّفًا من ذلك المجهول، غير أن نباحًا خافتًا ودودًا أعاد إليه بعض الطمأنينة، فعاد يستكشف الأمر من

جديد، فإذا بنسمة هواء دافئة تتسلّل إلى منخريه، رأى بعدها بيللي يجلس متكوِّرًا تحت الجليد. تزحزح بيللي عن مكانه قليلًا، وأصدر صوتًا خافتًا ينم عن الترحيب بباك، ثم زاد في إظهار حسن نياته فغامر بلعق وجه باك بلسانه الرطب الدافئ.

ها هو باك يتعلّم درسًا جديدًا. «هكذا إذًا يجدون المكان للنوم»، قالها باك لنفسه قبل أن يختار موضعًا لنومه، ثم يشرع بثقة في حفر سريره الخاص، بكثير من الجلبة والجهد، أكثر مما يتطلّبه الأمر في الحقيقة. وسرعان ما ملأت حرارة جسمه الحفرة الصغيرة بالدفء فاستسلم لنوم كان في أمس الحاجة إليه بعد ذلك اليوم الشاق. ورغم النوم العميق المريح، لم تخلُ أحلام باك من النباح والزمجرة والقتال.

لم يفتح باك عينيه في الصباح، إلا عندما أيقظه ضجيج المُخيَّم الذي يستعد ليوم جديد، ومرّت بعدها بضع لحظات وهو لا يدري أين هو. وقد ظلّ الجليد يتساقط طوال الليل حتى غطاه تمامًا، وتحوّل إلى ما يشبه جدارًا عاليًا يحيط به، فسرت رعشة من الخوف في جسمه، هو

خوف ساكني البراري من الوقوع في الأسر. وهذا الشعور في واقع الأمر ما هو إلا استرجاع لمشاعر أسلافه القدامى الذين عرفوا حياة البراري، أما هو فقد عاش حياة لم تعرف القيود في المدينة، ولم يسبق له أن اعتراه الخوف من الأسر. وكان من مظاهر ذلك الخوف الغريزي أن أخذت عضلات جسمه كلّها في التشنّج بشكل تلقائي، ووقف وبر رقبته وكتفيه، ثم اندفع في انطلاقة هائلة إلى أعلى، مزمجرًا بصوت فظيع، في الفضاء الساطع ببياض سحابة الجليد المحيطة به. وقبل أن يعود باك واقفًا على أقدامه رأى المُخَيَّم الأبيض ممتدًا أمامه، وتذكّر كل الحوادث التي مرّت به بدءًا من لحظة خروجه مع مانويل في نزهة، إلى الحفرة التي صنعها لنفسه في الليلة الماضية.

رأى فرانسوا باك في قفزته العالية هذه فصاح متهلِّلًا:

- «ألم أقل لكم؟».

ثم التفت إلى ييرو مضيفًا:

«باك هذا يتعلّم بسرعة كبيرة من دون شك».

أومأ يـيرو بحماسة موافقًا، فهو بصفته مسؤولًا عن نقل رسائل بريدية مهمّة للحكومة الكندية عليه أن يبذل أقصى الجهد للحصول على أفضل الكلاب القادرة على أداء هذه المهمّة، وقد كان راضيًا تمام الرضا عن أداء باك.

انضم إلى الفريق ثلاثة كلاب جدد من فصيلة «الهاسكي»، فأصبح مجموع الكلاب تسعة، وذلك في ما لا يزيد على ساعة واحدة. وعند انتهاء ربع ساعة أخرى كانت الكلاب مستعدة، وقد طُوِّق كل منها بلجامه، ثم انطلق الفريق كله يجرّ الزلّاجة في طريقه إلى أخدود «دايي». شعر باك بالسعادة لمغادرة المكان، ورغم أن المجهود كان شاقًّا فإنه لم يضِق بالعمل. كذلك لاحظ بشيء من الدهشة الحماسة التي سيطرت على الفريق كلّه، ثم انتقل إليه، وتضاعفت دهشته عندما لاحظ التغيير الذي طرأ على زميليه ديـرضي الله عنهم وسول – ليكس. لقد تحوّل كل منهما تحولًا كاملًا، وصار كلبًا آخر بعد تمنطقه باللجام؛ كل السلبية واللامبالاة اختفت تمامًا، وأصبحا في غاية النشاط والانتباه. وتركز

اهتمامها على إتمام العمل على أفضل وجه، فإذا حدث شيء من التأخير أو الفوضى التي قد تعطّل ذلك العمل بدا عليهما التوتّر البالغ. لقد بدت شبكة السيور التي تجرّ الزلّاجة وكأنها التجسيد الحقيقي لوجودهما، وكل ما يعيشان من أجله، والشيء الوحيد الذي يجلب إليهما السعادة.

كان الكلب ديـ رضي الله عنهم في الموضع الأقرب للزلّاجة، يليه من الأمام باك، ثم سول - ليكس، وأمامهم مجموعة الكلاب الأخرى في صفّ واحد يفضي في النهاية إلى الكلب القائد، وهو سبيتز. وقد تعمّدوا وضع باك بين ديـ رضي الله عنهم وسبيتز ليتولّى هو استقبال التعليمات. وبقدر ما كان باك تلميذًا سريع التعلّم كان الكلبان ديـ رضي الله عنهم وسبيتز مُعلِّمين صارمَين، فلم يتساهلا معه عند وقوع أي خطأ، بل كانا يرشدانه، بأسنانهما الحادة إذا لزم الأمر، فيصحح أخطاءه في الحال. التزم ديـ رضي الله عنهم بالحكمة والعدل في توجيهه، فلم يعاقبه إلا إذا أخطأ، ولم يتساهل في عقابه إذا ارتكب ما يستدعي ذلك. ورأى باك أن تصحيح الأخطاء هو أقل تكلفة من الرد على مضايقاتهما، خصوصًا وأن فرانسوا شارك، بالسوط الذي في يده، في

تصحيح تلك الأخطاء. حدث على سبيل المثال، بعد فترة راحة قصيرة، أن اشتبك باك بسيور الزلّاجة، مما تسبب في تأخير الانطلاق بعض الشيء، فاندفع الكلبان في اتجاهه وأوقعوا به عقابًا صارمًا. صحيح أن ذلك لم يفك اشتباكه بالسيور، بل جعله أسوأ، لكن باك تمكّن من إصلاح الأمر، وحرص على ألّا يحدث ذلك أبدًا مرة أخرى. وعندما انتهى يوم العمل كان باك قد صار ماهرًا في أداء عمله، فكفّ زميلاه عن مضايقته، وقلّ استعمال فرانسوا لسوطه. وزاد ييرو على ذلك أن أبدى اهتمامًا خاصًّا بباك، فقام بفحص قوائمه الأربع للاطمئنان عليه.

استغرق الجري في اتجاه الأخدود يومًا من العمل الشَّاقّ، لقد مرّوا في منطقة مخيم «شيب»، عابرين منطقة «سكيلز» وحدّ الشجر، أي آخر حد يمكن للأشجار أن تنمو فيه، ومرّوا كذلك بجوار أنهار جليدية وكتل جليدية ضخمة يصل عمقها لمئات الأقدام. واجتازوا أيضًا خط «شيلكوت» الذي يفصل بين الماء المالح والماء العذب ويعزل منطقة الشمال الباردة الموحشة، ويحميها في الوقت نفسه. وقضى الفريق وقتًا

طيّبًا حول البحيرات التي تملأ فوّهات البراكين الخامدة، وفي المساء وصلوا إلى المخيم الواسع الأرجاء الذي يقع عند رأس بحيرة «بينّيت»، حيث كان الآلاف من الباحثين عن الذهب مشغولين ببناء قوارب لمواجهة تصدّع الجليد الذي يحدث في الربيع. وهناك قام باك بالحفر في الجليد، حيث استغرق في النوم، كأنه محارب غلبه الإجهاد، غير أنه فوجئ بمن يوقظه في الظلام البارد، ثم يضع عليه لجامه، ويربطه مع زملائه إلى الزلّاجة.

قطع الفريق في ذلك اليوم أربعين ميلًا، لكنهم في اليوم التالي، ولأيام تالية أخرى، قطعوا مسافات أقلّ، وذلك لأنهم ساروا في طرق غير مطروقة، فزاد المجهود وقلّت المتعة. كانت الخطة المُتَّبعة هي أن يسبق ييرو بقية الفريق، ليزيح الجليد جانبًا باستخدام حذاء خاص يشبه قدم البّطّة، فيمهد لهم طريق السير، وقد تبادل موقعه في أحيان قليلة مع فرانسوا الذي يقود الزلّاجة ويوجّهها. وذلك لأن ييرو كان في عجلة من أمره، وهو دائمًا يفخر بمعرفته الواسعة بالجليد، وهي خبرة ضرورية، لا

يمكن الاستغناء عنها، لأن الجليد في الخريف يكون هشًّا رقيقًا، وحيثما يكون الماء جاريًا لا يوجد جليد على الإطلاق.

يومًا بعد يوم، ولعددٍ بدا بلا نهاية من الأيام، تركزت حياة باك حول العمل الشاق في جرّ الزلّاجة. اعتادوا أن يغادروا المخيم في الظلام، ومع بزوغ الفجر يكونون قد قطعوا أميالًا على الطريق، فيستمرّون في السير طوال اليوم، ولا يتوقّفون لمُخيَّم جديد إلا بعد حلول الظلام، فيأكلون وجبة الأسماك المخصّصة لهم، ثم يزحفون متعَبين، وينامون في حفرهم الجليدية. بدأ باك يعاني من الجوع، وبدا نصيبه اليومي من سمك السلمون المجفّف، الذي لا يتعدّى وزنه رطلًا ونصفًا، غير كافٍ على الإطلاق لإشباعه، فأخذ يعاني من قرصات الجوع بشكل مستمرّ. أما زملاؤه، فقد كانوا أخفّ منه وزنًا منذ البداية، بالإضافة إلى أنهم اعتادوا تلك الحياة، لذلك كان رطل واحد من السلمون المجفّف كافيًا لإشباعهم وإرضائهم.

ابتعد باك بالتدريج عن نمط الحياة المتأنّقة الذي اعتاد عليه في الماضي، من ذلك مثلًا أن أسلوبه المتمهّل في تناول الطعام يسَّر لبعض زملائه الذين يزدردون طعامهم بسرعة بالغة أن يسلبوه جزءًا من نصيبه، ولم تكن محاولة العراك مجدية في هذه الحالة، فانشغاله بالعراك مع اثنين أو ثلاثة منهم، لا يعني إلا إعطاء الفرصة للآخرين لابتلاع ما تبقى من نصيبه. الحل الوحيد إذًا هو أن يتعلّم أن يلتهم طعامه بنفس سرعتهم. ولم يرغمه الجوع على تغيير سرعته فقط، وإنما وصل به الأمر حد أن يأخذ ما ليس من حقّه، بعد أن راقب ما يحدث في العالم من حوله، وتعلّم منه. وهكذا عندما رأى أحد الكلاب الجديدة في الفريق، اسمه يايك، وهو لصّ كثيرًا ما يتمارض ليهرب من العمل، رآه يتسلّل بدهاء ويسرق شريحة من لحم الخنزير المقدّد، من خلف ظهر ييرو، قام بتقليده في اليوم التالي، مع إجادة في الأداء إذ سرق ضعف الكمية. يومئذٍ قامت الدنيا ولم تقعد، لكن أحدًا لم يشك فيه، على حين عوقب كلب آخر على

جريمة لم يرتكبها. ذلك الكلب هو داب الذي عُرف بالحمق والتخبّط وسبق ضبطه متلبِّسًا بارتكاب جرائم مشابهة.

تجربة السّرقة هذه إن دلّت على شيء فهي تدلّ على قدرة باك على التكيّف ومن ثَمَّ تحمّل الحياة القاسية في أرض الشمال. نعم، أثبتت هذه التجربة قدرة باك على التغيُّر استجابة لتغيّر الظروف، والحق أن فشله في ذلك كان سيؤدّي به بالتدريج إلى موت فظيع. وتُعدّ التجربة أيضًا علامة على انهيار الطبيعة الأخلاقية التي طالما تميّز بها باك، فقد بدت في تلك المرحلة من حياته غير ذات فائدة، بل معوقٌ لكفاحه المرير من أجل البقاء. لقد كانت تلك المُثُل الأخلاقية الرفيعة صالحة في الجنوب، حيث يسود الحب والطيّبة والصداقة، وحيث تُحترم الملكيّة الخاصّة والمشاعر الشخصيّة، أما في الشمال حيث قانون الهراوة والناب، فإنه من الحمق الالتزام بمثل تلك الأشياء. وبحسب ما لاحظ باك فإن من يصرّ على مراعاتها، لن يكون النجاح حليفه في عالم الشمال أبدًا.

لم يستوعب ما يحدث له من تغيير نتيجة التفكير المنطقي. لقد صار جديرًا بالحياة في الشمال، لأنه كان كفئًا وكفى، ثم أخذ بالتدريج يزداد تكيُّفًا مع الطابع الجديد لحياته. على سبيل المثال، اعتاد باك في حياته الماضية ألّا يهرب من القتال أبدًا، لكن الهراوة في يد الرجل ذي السترة الحمراء حطَّمت بداخله مبدأً أساسيًّا وبدائيًّا، ففي حياته المتمدّنة كان من الممكن أن يموت من أجل قيمة أخلاقية، مثل مواجهة سوط القاضي ميللر، أما الآن فقد انسلخ تمامًا من حياة التمدّن تلك، وعلامة ذلك هي لجوؤه إلى الهروب من أي مواجهة أملًا في إنقاذ حياته. لم يسرق باك للمتعة، بل تلبية لصراخ معدته، ولم يسرق علنًا، وإنما سرًّا وبمهارة فائقة، احترامًا لقانون الهراوة والناب. باختصار، لقد فعل باك ما فعله لأنه بدا له الخيار الأسهل.

التغيّر الذي طرأ على باك - سواءً رأيناه نحو الأفضل أو نحو الأسوأ - كان سريعًا للغاية. صارت عضلاته قويّة، كأنما قُدّت من حديد، فلم يعد الألم ينال منه بسهولة. ومن زاوية أخرى يمكن القول إنه

أحسن استخدام موارده الغذائيّة أفضل استخدام، فهو يأكل كل ما يتاح له، مهما بدا مقزِّزًا أو غير قابل للهضم، وما إن يأكله حتى تقوم عصارة معدته بعملها على خير وجه، فتمتصّ ما فيه من مادّة مغذّية يحملها الدم إلى أعضاء جسمه كلها - حتى الأطراف - حيث تتحوّل إلى خلايا صحّية وعضلات قويّة. وتحسّنت لدى باك حاستا الإبصار والشمّ بشكل مثير للإعجاب، أما حاسّة السمع فقد بلغت من الدقّة حدًّا جعله يستطيع حتى في أثناء نومه أن يسمع أشد الأصوات خفوتًا، بل أن يحدّد أيضًا إن كانت تُبشِّر بخير أم تُنذر بشرّ. وتعلّم باك، في ما تعلّم، أن يعض بأسنانه الثلج الذي يتجمّع بين حوافره، حتى يتخلّص منه، أما إذا شعر بالعطش، وباعدت بينه وبين الماء طبقة سميكة من الجليد، فما عليه إلا أن يقف على قائمتيه الخلفيتين وينبش الجليد بقائمتيه الأماميتين القويتين حتى يكسر الجليد، ويروي ظمأه. وكانت أكثر صفاته الجديدة إثارة للدهشة هي قدرته الفائقة على التنبؤ بهبوب الرياح في الليلة السابقة عليها. ومهما تكن الرياح ساكنة عند إعداده لمكان نومه، بجوار شجرة، أو على ضفة

ماء، فإن الرياح القوية التي تهبّ بعد ذلك لا تجده إلا آمنًا مطمئنًا في مخبئه يلفه الدفء في موضع عكس اتجاه الريح.

لم يتعلّم باك فقط من تجاربه، وإنما أيضًا من غرائز قديمة غابت منذ زمن طويل ثم عادت إلى الحياة. لقد سقطت الأجيال التي هذّبتها المدنيّة من ذاكرته، وبشكل غامض عادت تلك الذاكرة إلى آبائه الأوّلين، حين انطلقت مجموعات من تلك الكلاب البرِّيّة فتوغّلت في الأحراش، ثم هاجمت حيوانات أخرى، واتّخذت منها غذاءً لها. حقًّا لم يتعلّم باك أن يقاتل مثل الذئاب التي تهاجم بسرعة خاطفة، ثم ترتدّ مبتعدة، لكن أجداده الذين كاد ينساهم، تعلموا بتلك الطريقة، وها هو يستعيد مميزات أسلافه، وها هي ذي أساليب القتال القديمة التي ورثها عنهم تصدر عنه الآن بتلقائية، من دون مجهود وبلا حاجة إلى الاكتشاف، وكأنها كانت دائمًا هناك.

في الليالي الباردة، حين يقف باك شامخًا بأنفه متوجهًا إلى نجمة في السماء، ويُصدر نباحًا طويلًا يشبه عواء الذئاب، لا يكون وحده، بل معه

أجداده جميعًا، رغم أنهم اندثروا وسكنوا التراب. وهم مثله يتوجّهون بأنوفهم، إلى السماء ويصدرون نباحهم الخاصّ عبر الأزمنة، وعبر صوته المتصاعد، وبإيقاع نباحه نفسه. إنه الإيقاع الذي يعبّر عن مخاوفهم جميعًا، المخاوف التي تمثّلها أشياء مثل: السكون والبرد والظلام.

وهذا كلّه يدلّ على أننا قد نتحرّك على مسرح الحياة كدمى خشبية تحرّكها أيادٍ أخرى. لقد انبعثت تلك الأغنية القديمة من خلال باك، الذي تمكّن من العودة إلى صوته الحقيقي، لأن رجالًا وجدوا معدنًا أصفر برّاقًا في الشمال، ولأن مانويل كان يعمل مساعدًا للبستاني، ومرتّبه لا يكفي للإنفاق على احتياجات زوجته والنسخ الأخرى المصغرة منه، وهم أبناؤه.

٣- الوحش البدائي المسيطر

الطبيعة الوحشية كانت مسيطرة بداخل باك، وقد زادت قوتها بل تضاعفت تحت ضغط الحياة الشاقّة التي يعيشها، ورغم أنها أعطته شيئًا من التوازن والإحساس بالسيطرة فإن هذه الزيادة لم تكن واضحة للجميع. أما باك فكان أكثر انشغالًا بالتكيّف مع حياته الجديدة من أن يشعر بالاسترخاء. لم يعد خيار القتال هو المفضّل عند باك، بل أكثر من ذلك صار يتجنّبه بكل طريقة ممكنة. وبشكل عام لم يعد سلوكه قائمًا على اختيارات عفوية، وإنما على مزيد من التمهل قبل الفعل، وهكذا لم يعد أي تصرّف طائش أو غير مدروس متوقّعًا منه. فهو على الرغم من الكراهية العميقة بينه وبين زميله سبيتز لم يبدِ باك أي تذمّر أو ضيق تجاهه وتجنّب تمامًا أيّ سلوك عدائي ضده.

وعلى الجانب الآخر، يبدو أن سبيتز رأى في باك غريمًا خطرًا، لذلك انتهز كل فرصة متاحة ليستعرض قوّته، بل تعمد في أحيانٍ كثيرة أن

يتحرّش بباك ويضايقه محاولًا أن يدفعه إلى بدء القتال بينهما، وهي معركة لم تكن لتنتهي إلا بموت أحدهما.

ولعلَّ ذلك كان ممكنًا في مرحلة مبكرة من رحلة ذلك الفريق لولا وقوع حادث غير متوقّع، وبالتأكيد غير مرغوب فيه. حدث ذلك في نهاية أحد أيام الرحلة، وقد انتهى يوم العمل وأقام الرجال مخيمًا في منطقة كئيبة مقفرة، بالقرب من شاطئ بحيرة «لي بارچ». لم يكن المكان هو الأنسب لمثل هذا المخيم، لكن الظلام والجليد المتساقط والرياح القويّة التي تخترق الأجساد كسكينٍ متوهّجٍ شديد السخونة أرغمتهم على هذا الاختيار، الذي اتضح في ما بعد أنه كان غايةً في السوء. في ذلك الموضع انتصب خلفهم حائط صخري على شكل زاوية قائمة، واضطر ييرو وفرانسوا إلى وضع لوازم النوم الخاصّة بهما، وكذلك إشعال النار، على جليد البحيرة نفسه، وذلك بعد أن تركوا خيمتهم في «دايي» تخفيفًا للأحمال. ولم يجدوا وقودًا للنار سوى بعض ألواح الخشب الطافية،

التي سرعان ما انطفأت وانداحت نارها في الجليد، مما اضطرّهم إلى تناول طعام العشاء في الظلام.

كان باك قد جهَّز لنفسه موضعًا مريحًا للنّوم تحت الحائط الصخري، نعم ارتاح باك في موضعه وقد لفّه الدفء، حتى إنه لبّى نداء الطعام متكاسلًا، وذلك عندما ناداه فرانسوا لتناول سمكة العشاء - بعد أن أذاب ثلجها على النار -. وبعد تناول الطعام عاد باك ليجد مربضه الثمين مُحتلًّا، وسمع زمجرة محذرة أخبرته أن المحتل هو سبيتز. وحتى هذه اللحظة التزم باك بخطته بعدم التعرّض لغريمه سبيتز، لكن ما رآه فاق قدرته على الاحتمال، مما أطلق زئير الوحش الكامن بداخله، فإذا به ينقضّ على غريمه في سورة من الغضب التي أدهشت كليهما، لا سيما سبيتز الذي تعلّم من تجاربه السابقة مع غريمه أنه كلب هادئ بشكل غير معتاد، وأنه لا ميزة له سوى حجمه الضخم ووزنه الثقيل.

ولم يكن فرانسوا أقل اندهاشًا عندما رآهما ينقذفان متلاحمَيْن خارجَيْن من المربض المتنازَع عليه، لكنه خمَّن بسهولة سبب العراك بينهما. وإذا به يصيح مشجعًا باك:

- «عليك به يا باك، عليك بذلك اللص».

كان سبيتز من ناحيته متوثّبًا للعراك، فجعل يدور حول باك متحيِّنًا فرصة للانقضاض، بينما يرتفع صوت صراخه الغاضب المتحفِّز، ولم يكن باك أقل تحفُّزًا، ولا أقل حذرًا، وهو يدور أيضًا متحيّنًا الفرصة للهجوم. وفجأة، حدث ما لم يكن في الحسبان على الإطلاق، حدث ما أدى إلى تأجيل الصراع بينهما على السيطرة إلى المستقبل، بعد أميال أخرى من الكدح في جر الزلّاجة.

صرخة توعّد عالية صادرة من ييرو، وقرقعة هراوة تصطدم بعظام كائن ما، وصوت مريع لصرخة ألم، ثم جَلَبَة هائلة. نعم، لقد اكتشف أصحاب المكان فجأة أن مخيمهم قد اقتحمته كائنات ذات فراء كثيف، هي مجموعة من نحو أربعة أو خمسة من كلاب الهاسكي، التي تكاد

تهلك جوعًا، وقد اجتذبتها الروائح المتصاعدة من المخيم من إحدى القرى المحلّية التي يعيش فيها سكان المنطقة الأصليون. لقد تسلّلت الكلاب إلى المخيم أثناء العراك بين باك وسبيتز، وعندما اندفع ييرو وفرانسوا يضربونها بالهراوات الثقيلة، لم تتردّد الكلاب في استخدام أنيابها في صد الهجوم. كانت الكلاب كأنما أصابها الجنون عندما اشتمت رائحة الطعام، ووجد ييرو أحدها وقد غاصت رأسه في صندوق الطعام، فلما استقرت الهراوة بقوة على ضلوعه البارزة، انقلب الطعام على الأرض، وفي اللحظة ذاتها انقض عدد من تلك الوحوش التي تتضوّر جوعًا لتتخاطف قطع الخبز ولحم الخنزير المجفّف، فانقضت عليها الهراوة من دون تفرقة، وصدرت عنها أصوات عواء وزمجرة تحت وابل الضربات، لكنها رغم ذلك ظلّت تقاوم بجنون إلى أن انتهت من التهام آخر قطعة من الخبز.

خرجت الكلاب الأخرى في تلك الأثناء من مرابضها الجليدية، لتفاجأ بهجوم هؤلاء الغزاة الشرسين. لم يرَ باك من قبل مثل تلك

الكلاب، التي كانت جلدًا على عظم، حتى إن عظامها البارزة تكاد تخترق جلدها. في الحقيقة، لم تكن إلا هياكل عظمية مغطاة بكسوة مُتهدّلة من الجلد المهترئ، لها عيون ذات بريق مخيف وأنياب حادة بارزة يسيل من حولها اللعاب، وقد جعلها جنون الجوع مثيرة للرعب، تصعب بل تكاد تستحيل مواجهتها. وفي بداية المعركة دُفع فريق الكلاب دفعًا إلى الحائط الصخري، ووجد باك نفسه محاطًا بثلاثة كلاب من فصيلة «الهاسكي»، وفي لحظات كانت رأسه وكتفيه قد أثخنتها الجراح. وغرق المكان كلّه في ضوضاء مخيفة، فقد وقف بيللي يصرخ كعادته، وديـ﵃ وسول - ليكس يقاتلان بشجاعة جنبًا إلى جنب على حين تسيل الدماء من الجروح التي تكاد تغطي جسدَيهما، أما چو فكان يجأر كشيطان، وعندما أُتيحت له الفرصة غرز أسنانه في الساق الأمامية لأحد كلاب «الهاسكي»، حتى سُمع صوت قرقعة عظامه، عندئذٍ قفز الكلب المتمارض يايك وانقضّ عليه بأسنانه، فكسر عنقه في ومضة خاطفة. واستدار باك فغرز أسنانه في رقبة معتدٍ شرسٍ آخر، حتى انفجرت منها

الدماء. وحينما أحسّ باك بطعمها الساخن على شفتيه، ازداد ضراوة في القتال، وبينما هو يقذف نفسه على معتدٍ آخر، أحس بأسنان تنغرز في رقبته. إنه سبيتز الغادر يهاجمه غدرًا.

أسرع بيرو وفرانسوا لإنقاذ فريق كلاب زلاجتهما، بعد أن انتهيا من تنظيف وترتيب الجزء المخصّص لهما في المخيم، فوجدا أن موجة الوحوش الجوعى قد تراجعت، كما تمكّن باك من التحرّر من سبيتز. وما هي إلا دقائق معدودة حتى اكتشف الرجلان أن عليهما العودة لمطاردة الوحوش وإنقاذ الطعام، مما دفع بالمهاجمين إلى العودة لمهاجمة الكلاب. ولم يكن أمام كلاب الفريق إذًا سوى الهرب، فقد بعث الخوف شيئًا من الجرأة في قلب بيلّلي فمرق من بين دائرة المهاجمين، وانطلق هاربًا فوق الجليد، ثم تبعه داب ويايك، ثم بقية الفريق. وعندما تمالك باك نفسه وأخذ يستعد للانطلاق هاربًا مع زملائه، إذا به يرى بطرف عينه سبيتز يندفع في اتجاهه، وقد بدا واضحًا أنه ينوي القضاء عليه. رأى باك أن فرصته في النجاة إذا واجه سبيتز في

تلك اللحظة تكاد تكون معدومة، فشحذ كل قواه، ثم انطلق مبتعدًا عنه، مثيرًا دهشة سبيتز، ولحق بزملائه الفارّين على البحيرة.

التقت كلاب الفريق التسعة في ما بعد، واتخذت من الغابة مأوًى لها. ورغم أن مهاجميها لم يتَّبعوها، فإن المجموعة كانت في حالة يُرثى لها، فليس منها من لم تصبه الجروح في أربعة مواضع أو خمسة. وبعضها كانت جراحها خطيرة؛ داب مصاب بجرح خطير في إحدى قائمتيه الخلفيتين، ودولّلي آخر كلبة من فصيلة «الهاسكي» انضمت للفريق في مدينة «دايي»، تمزّق حلقها، وچو فَقَدَ إحدى عينيه. أما بيلّلي الطيب القلب، فقد قضى الليلة ينشج مدمدمًا بسبب أذنه التي تهتكت، وصارت كأنها شرائح من اللحم. ومع انبلاج الصباح تسلّلت جميعًا بحذر وهي تعرج، إلى المخيم، لتجد الغزاة قد ذهبت والرجلين بيرو وفرانسوا في أشد حالات الغضب. لقد سلبتهما كلاب الهاسكي نصف مخزونهما من الطعام، والتهمت أربطة الزلّاجة وغطاءها المصنوع من قماش خشن. في واقع الأمر، لم يسلم أي شيء من محاولاتها لأن تأكله، حتى الأشياء

التي لا تصلُح للأكل أصلًا! لقد أكلت تلك الكلاب زوجًا من أحذية ييرو المصنوعة من جلد الغزال، وقطع من السيور الجلدية، بل ومقدار قدمين من طرف السوط الذي يستخدمه فرانسوا، الذي توقّف عندما رآهم عن البكاء على أغراضه المفقودة لكي يرعى كلابه الجريحة. ثم قال بحنان:

- «آه يا أصدقائي، إن تلك الجروح الفظيعة قد تجعلكم كلابًا مسعورة، وقد تسبب داء الكلب. يا الله. ما رأيك يا ييرو؟».

هزّ ييرو - رجل البريد - رأسه بغموض، فلا يزال أمامهم أربعمائة ميل كي يصلوا إلى مدينة «داوسون»، ولا يمكنه أن يتحمّل انتشار داء الكلب بين هذه الكلاب. وبعد ساعتين من المجهود الشاق والصراخ، رُبطت الألجمة، وانطلقت الكلاب في طريقها. انطلقت وقد انغرز الألم في جراحها المتيبّسة، تقطع الجزء الأصعب من رحلتها حتى تلك اللحظة، والحقيقة أنه أيضًا الجزء الأصعب في الرحلة كلّها إلى مدينة «داوسون».

كان النهر المسمّى «ثيرتي مايل» (الأميال الثلاثين) ممتدًا أمامهم، ومياهه الهادرة تقاوم الصقيع. لذلك لم تتكوّن طبقات الجليد إلا في المناطق الهادئة وفي مناطق الدوّامات. وتطلّب الأمر منهم ستة أيام كاملة من المجهود الشاق لكي يتمكّنوا من اجتياز تلك الثلاثين ميلًا الفظيعة. ولقد كانت حقًّا فظيعة، فكل قدم قطعوها في تلك المسافة كانت مخاطرة قد تكلفهم حياة أحد الكلاب أو أحد الرجال. وتعدّدت المرّات التي كان ييرو يتحسّس فيها الطريق أمامهم، ثم يفاجأ بانهيار في الجسر الجليدي الذين يعبرون عليه، ولا ينقذه من الهلاك إلا العمود الطويل الذي يحمله في يده كسارية السفينة، فإذا سقط هو في الحفرة التي تنفتح تحت قدميه، أمكنه التعلّق بالعمود حتى لو سقط داخل الحفرة. وقد سجَّل مقياس الحرارة في بعض الأوقات خمسين درجة مئويّة تحت الصفر، لذلك كان لزامًا عليه في كل مرة يسقط في الجليد أن يشعل نارًا يجفف بها ملابسه حتى لا يخسر حياته.

لم يكن لشيء أن يُثَبِّط عزيمة بيرو، ولهذا السبب بالتحديد اختارته الحكومة الكندية لينقل رسائلها. وهو دائمًا على أهبّة الاستعداد لمواجهة أي مخاطر بعزيمة قوية، حيث يتقدّم الركب متطلّعًا ومتفحّصًا الجليد بوجهه المتغضّن وعينيه الحادّتين، مكافحًا بلا كلل ولا ملل ابتداءً من قبل بزوغ الفجر إلى ما بعد الغروب. وما أكثر ما طاف حول شواطئ النهر متفحّصًا حوافَّ الجليد الحادّة، التي قد تلتوي وتتشقّق تحت أقدامهم، لكي يتجنّبوا الوقوف عليها. وذات يوم تكسّر الثلج فغاصت الزلّاجة في الجليد ومعها ديرضي الله عنهم وباك، وحينما تمكّن الباقون من إنقاذهما كانا قد أشرفا على الغرق وكادا يتجمّدان. واستلزم الأمر إشعال النار للإبقاء على حياتيْهما، بعد أن تغطّى جسماهما بطبقة صلبة من الثلج، فأخذا يدوران حول النار، بتوجيه من بيرو وفرانسوا، حتى تصبّبا عرقًا بعد أن ذاب الجليد، بل اشتعلت النار في أطرافهما بالفعل.

وفي حادث آخر، سقط سبيتز في الجليد وجرّ خلفه فريق الزلّاجة وصولًا إلى باك الذي جعل يقاوم السقوط بشدّ نفسه إلى الخلف بكلّ

قواه، وقد انغرزت أظافره الأمامية في الحافّة المائلة، والجليد تحت أقدامه يضطرب ويطقطق. ووراء باك انتصب ديﷺ يحاول مثل زميله، ووراءهما معًا كانت الزلّاجة ثم فرانسوا الذي أخذ يحاول جذب الزلّاجة حتى كادت أوتار ساقيه تتمزّق.

وانكسرت في مرة أخرى حوافّ الجسر الثلجي، ولم يعد ثمة مهرب سوى أعلى جُرف ثلجي. تسلّق بيرو هذا الجرف بما يشبه المعجزة، بينما كان فرانسوا يصلّي من أجل تلك المعجزة. ثم صُنع حبل طويل باستخدام كل السيور وأربطة الزلّاجة وما بقي من ألجمة الكلاب، وعن طريقه رُفعت الكلاب واحدًا واحدًا حتى قمة الجُرف. ولم يصعد فرانسوا إلا في نهاية الأمر بعد رفع الزلّاجة والحمولة المطلوب نقلها. وبعد ذلك كلّه، كان عليهم أن يجدوا مكانًا مناسبًا للنزول من ناحية أخرى، باستخدام الحبل نفسه. وعندما حلّ المساء كانوا قد عادوا إلى مسارهم في النهر، من دون أن يتجاوز ما قطعوه من مسافة في ذلك اليوم ربع ميل فقط.

حينما وصل الرَكب إلى نهر «هوتالينكا»، وهو حدث سعيد، كان باك قد استنفد كل قواه، وكذلك بقيّة الكلاب، إلا أن بيرو أصرّ على دفعهم لبدء العمل مبكّرين، والاستمرار فيه حتى ساعة متأخّرة، وذلك لكي يعوّض الوقت الضائع، وهكذا قطعوا خمسة وثلاثين ميلًا إلى جبال «بيج سالمون»، وفي اليوم التالي تمكّنوا من قطع خمسة وثلاثين ميلًا أخرى، ووصلوا إلى جبال «ليتل سالمون». وفي اليوم الثالث اقترب الفريق من الوصول إلى منطقة «فاي ﷺ فينجرز»، بعد أن اجتازوا أربعين ميلًا إضافية.

لم تكن قوائم باك بالصلابة التي تتميّز بها قوائم كلاب «الهاسكي» الأخرى، إذ اكتسبت قدرًا كبيرًا من النعومة خلال الأجيال المتعاقبة بعد ذلك اليوم الذي صار فيه جده الأكبر مُدجّنًا، على يد أحد القدماء من ساكني الكهوف أو المستقرّين على حوافّ الأنهار. ولطالما قضى أيامًا يعمل وهو يعرج متألّمًا، وعند انتهاء العمل وإقامة المخيم يتمدّد في هامود كأنه ميت، ورغم جوعه الشديد لا يتحرّك للحصول على طعامه،

بل ينتظر حتى يأتيه به فرانسوا. وفي كل مساء، يقوم فرانسوا – قائد الفريق – بتدليك باطن قوائم باك لمدة نصف ساعة، بل أكثر من هذا ضحّى القائد بجزء من الخُفّ الخاصّ به، ليصنع منه خفًّا خاصًّا بباك، وما أجمل الراحة التي شعر بها باك حينذاك. وذات صباح رسم باك ابتسامة على الوجوه، بما في ذلك وجه ييرو الذابل، وذلك عندما نسي فرانسوا أن يُلبسه الخفَّ، فاستلقى على ظهره ورفع قوائمه الأربع في الهواء مستعطفًا ورافضًا أن يتحرّك من دون انتعال الخفِّ الخاصِّ به. وازدادت قوائم باك صلابة بمرور الأيام، ولم تعد في حاجة إلى الحماية، فاستغنى عن الخفِّ الذي كان قد بلي فعلًا من كثرة الاستعمال.

وذات صباح، في جزيرة «ييللي»، حين انشغلوا بربط الألجمة استعدادًا للرحيل، أُصيبت الكلبة دولّلي بما يشبه الجنون، من دون سابق إنذار. واتّضحت حالة الهياج تلك عندما أطلقت عواءً ذئبيًّا طويلًا يفطر القلب، بعث الرعب في الكلاب الأخرى حتى انتفش شعرها خوفًا، ثم اندفعت دولّلي مباشرة في اتجاه باك الذي لم يسبق له أن رأى كلبًا

مسعورًا، ولم يكن عنده بالتالي أسباب تدعوه للخوف من الجنون، لكن ما رآه أمامه أثار رعبه، فانطلق يجري فَزعًا.

وهكذا بدأ السباق، باك في الأمام وخلفه بخطوات قليلة كانت دولّلي، تلهث ويغطي الزَبَد شدقيها. لم تتمكّن من اللّحاق به فرعبه العظيم كان يدفعه لمزيد من الإسراع، أما هياجها المخيف فلم يعطه أي فرصة للتراجع. ظل باك يعدو حتى وصل إلى القمة المشجرة في الجزيرة، فعبرها ثم انطلق هابطًا من الناحية الأخرى، وبعد ذلك عبر خلال قناة خلفية مُمتلئة بقطع الجليد الخشنة إلى جزيرة ثالثة، ثم انعطف إلى المجرى الرئيسي للنهر، وشرع في عبوره وقد استبدَّ به اليأس. ورغم أن عينيه لم تقعا عليها طوال ذلك الوقت، فقد كان يسمع صوتها تزوم على بعض خطوات خلفه. وفوجئ باك بفرانسوا يناديه وهو على بعد نحو رُبع ميل، فأسرع يركض لاهثًا ناحيته وقد فقد الأمل في النجاة إلا على يده. وقف فرانسوا وقد أشرع في يده بلطة صغيرة، وما إن مرّ باك مندفعًا من أمامه حتى هوى بالبلطة على رأس الهائجة دولّلي.

أخذ باك يترنّح أمام الزلّاجة، مجهدًا للغاية، يحاول أن يلتقط أنفاسه ويستردَّ قواه الخائرة. ورأى سبيتز أن الفرصة قد سنحت ليهاجم غريمه، فانقض على باك وأنشب أسنانه في لحمه فأصابه بجرحين عميقين. عندئذٍ، جلجل السوط في يد فرانسوا، ونزل على رأس سبيتز. وكم كان مُرضيًا لباك أن يشهد خصمه وهو يتلقّى أسوأ ما رأى من جَلْدٍ في حياته.

وقال ييرو في أسى تعليقًا على هذا المشهد:

– «يا له من شيطان ذلك الكلب سبيتز، يومًا ما سيقتل باك هذا».

فعقّب فرانسوا بسرعة وبلهجة قاطعة:

– «بل باك هو الشيطان الأقوى، أنا أراقبه طوال الوقت، وواثق مما أقول. يومًا ما سيُجن باك وينقضّ على سبيتز ويقضي عليه، ويُبعثر أشلاءه على الجليد. لا شك عندي في ذلك، ولسوف ترى».

وأُعلنت الحرب بين الكلبين منذ ذلك اليوم. لقد شعر سبيتز الكلب القائد والمسيطر على الفريق، أن مكانته مهدّدة بوجود ذلك الكلب الغريب القادم من الجنوب. نعم، كان باك غريبًا في عيني سبيتز، فقد رأى

عددًا من الكلاب الجنوبية، لكنْ أيًّا منها لم يُظهر مثل تلك المهارة سواء في الجرّ أو في غيره من المهمّات الأخرى المطلوبة في المخيم. كانت الكلاب الأخرى كلها قد اعتادت على الحياة الناعمة المرفّهة، فقضى عليها المجهود الشاقّ أو الصقيع أو الجوع الشديد. أما باك هذا فهو كلب استثنائي، هو فقط من تحمّل تلك المشاقّ، بل تطوّرت إمكاناته فصار مثل كلاب فصيلة «هاسكي» في قوّتها وتوحّشها ودهائها. وبالإضافة إلى ذلك رأى سبيتز في باك رغبة في السّيطرة على الفريق، وما جعل باك خطيرًا حقًّا في هذا السياق هو أن ضربات الهراوة في يد الرجل ذي السترة الحمراء قد ساعدته على التخلص من أي تهوّر أو اندفاع يعبّر بهما عن تلك الرغبة في السيطرة. حقًّا، كان باك فائقَ الدهاء، وهو قادر على تحيّن الفرصة المناسبة بصبر لا شكّ في أنّه متغلغل في فطرته.

إذًا كان الصراع من أجل السيطرة حتميًّا بلا شكّ. وقد سعى باك إلى هذه المواجهة بينهما لأنها كانت جزءًا من طبيعته، فقد استحوذ عليه ذلك الشعور المبهم - الذي لا يعرف اسمه - ويجعله فخورًا بعمله في جرّ

الزلّاجات على الطرق الجليديّة القاسية، ذلك الفخر هو الذي يُغوي الكلاب فتتحمّل المجهود الشاق والحياة القاسية حتى النفس الأخير، ثم تستقبل الموت راضية وهي تؤدّي تلك المهمة، وتنكسر قلوبها إذا فقدت أماكنها أمام الزلّاجة. هذا الشعور نفسه يعرفه ديـﷺ وسول – ليكس، كلٌّ في مكانه، الأول في موقعه الملاصق للزلّاجة، والثاني في المقدّمة. وهو أيضًا الشعور الذي يستحوذ على الكلاب كلّها عند ترك المخيم والانطلاق على الطريق، فتتحوّل من كائنات وحشيّة، بغيضة ومتجهّمة، إلى أخرى طموحة متحمّسة، وهو نفسه الذي يحفّزها على العمل طوال اليوم ثم العودة آخر اليوم إلى المخيّم وقد تلبّستها مرة أخرى مشاعر الكآبة والضجر وعدم الرضا. ذلك الفخر ملأ سبيتز وجعله يحمل على كلاب الزلّاجة التي تختبئ عند شد الألجمة استعدادًا للانطلاق في الصباح أو تتخبّط أثناء السير وتشتبك بسيور الزلّاجة، وهو أيضًا الذي جعله يخاف من باك كمنافسٍ محتملٍ على موقع القيادة.

كان باك حقًّا يحمل بداخله شعور الاعتزاز هذا، وكثيرًا ما أبدى متعمِّدًا مظاهر التحدِّي لسبيتز كقائدٍ، فهو مثلًا يحول بينه وبين الكلاب التي تشتبك بالسيور أثناء الجرِّ، فلا يمكّنه من معاقبتها. وقد حدث في صباح أحد الأيام، وبعد ليلة تساقط فيها الثلج بغزارة، أن اختفى الكلب المتمارض يايك، إذ ظلَّ مختبئًا في موضع نومه تحت الجليد، وأخذ فرانسوا يناديه ويبحث عنه بلا جدوى. واستبد الغضب بالكلب سبيتز فانطلق يجوس المخيم، يتشمّم الجليد وينبشه بأظافره بحثًا عن يايك، وهو يزمجر بصوت مخيف حتى إن يايك ارتعش خوفًا عند سماعه وهو في مخبئه.

وعندما ظهر يايك من مكمنه أسرع سبيتز وقد اشتعل غضبه لمعاقبته، وانطلق باك من الناحية الأخرى وهو غاضب أيضًا، ليتصدّى له متحدّيًا. لم يتوقّع سبيتز ذلك، ولم يكن مستعدًّا للمهارة التي أبداها باك في تلك المواجهة، ففقد توازنه وانطرح جانبًا. عندئذٍ تشجّع يايك الذي كان يرتعش ذليلًا منذ قليل، فاستغلّ لحظة الضعف هذه، واندفع

مهاجمًا القائد، وانضم إليه باك، الذي لم يعُد يبالي بقانون القتال النظيف. تقدّم فرانسوا في تلك اللحظة، ورغم الضحكة الخافتة التي أطلقها، فقد كان مصرًّا على تطبيق العدالة، فنزل بسوطه بكل قوته على ظهر باك. لم تنجح هذه الضربة في حمل باك على التراجع عن مهاجمة غريمه المستلقي أمامه، فإذا بفرانسوا يهوي بمقبض السوط على رأسه، مما جعل باك يتراجع مترنحًا بسبب الضربة غير المتوقّعة، عندئذٍ عاد فرانسوا إلى ضربه بالسوط مرات ومرات، على حين استدار سبيتز وانفرد بمعاقبة يايك على تجاوزاته الكثيرة.

كان الفريق في الأيام التالية لتلك الحوادث يقترب من مدينة داوسون، وقد استمرّ باك في التدخّل بين قائد الكلاب سبيتز، والكلاب الأخرى، لكنه كان يفعل ذلك بدهاء، وفي غياب فرانسوا. وبالإضافة إلى ذلك العداء المكتوم الذي أضمره باك، تجلّت بعض مظاهر العصيان، وتزايدت. لم يتأثّر ديـﷺ وسول - ليكس كثيرًا، أما بالنسبة لباقي الفريق فقد سارت الأمور من سيئ إلى أسوأ. ولم تعد الأمور تسير

بسلاسة، بل ثمة شغب ومشاحنات لا تنتهي، والمتاعب متوقّعة الحدوث في أي وقت. وفي القلب من ذلك كلّه، يوجد باك، الذي شغل فكر فرانسوا طوال الوقت، بهاجس حدوث المواجهة المتوقّعة بينه وبين سبيتز، وهي حين تحصل لن تنتهي إلا بموت أحدهما. وقد حدث أكثر من مرّة أن يندفع فرانسوا من خيمته بملابس النوم، على وقع أصوات عراك بين الكلاب الأخرى، ظنًّا منه أنها المعركة المتوقّعة بين باك وسبيتز.

وصل الفريق إلى «داوسون» ذات نهار غائم، ولمّا تسنح الفرصة للمعركة المرتقبة. وفي تلك المدينة رأى باك عددًا كبيرًا من الرجال، وعددًا لا يُحصى من الكلاب، والجميع مستغرقون في العمل، وكأنّما طبيعة الأمور أن الكلاب هي التي تعمل. كانت الكلاب تقضي اليوم صاعدة هابطة الشارع الرئيسي، في مجموعات كبيرة، تجرّ الأخشاب المستخدمة في بناء الأكواخ، وتلك المطلوبة للتدفئة وتصعد بها إلى المناجم. ثم يأتي الليل وهي لا تزال تعمل، وأجراسها المعلّقة برقابها لا

تزال تجلجل. كذلك تقوم الكلاب بكل الأعمال التي تقوم بها الخيل في وادي «سانتا كلارا». وقد التقى باك بكلاب جنوبية الأصل، ينتمي معظمها إلى فصيلة الهاسكي الشبيهة بالذئاب البرية. وفي كل ليلة، ترفع الكلاب عقيرتها بانتظام في الساعة التاسعة والثانية عشرة مساءً وفي الثالثة صباحًا، بأغنية غريبة تبعث على الرهبة كأنّها صلاة، وكم أسعد باك أن يشارك في تلك الترانيم الليلية.

لعلّ أغنية كلاب الهاسكي هذه كانت نوعًا من تحدّي الحياة، خصوصًا مع ظاهرة الشفق القطبي التي تملأ السماء بالألوان الخلّابة، ومع نجوم السماء التي تتواثب كأنّما ترقص، وبينما الأرض المتجمّدة يسري فيها الخَدَر تحت غطاء من الجليد، غير أن تلك الأغنية كانت ذات نغمة حزينة، مع أنّات طويلة، وما يشبه النشيج، وقد جعلها ذلك أقرب إلى أن تكون تطلّعًا لحياة جديدة، أو تجلّيًا لمخاض جديد. تلك أغنية قديمة قِدم السلالة نفسها، واحدة من أغاني عالم موغل في البعد، حينما تميّزت الأغاني بالطابع الحزين، ثم استخدمتها أعداد لا تُحصى من

أجيال تالية للتعبير عن المحن التي تعرضت لها، وهكذا حتى وصلت إلى الشكل الذي تأثّر به باك تأثرًا عميقًا. عندما كان باك يتأوّه وينشج بالبكاء كان في حقيقة الأمر يستعيد آلام الحياة التي عاشها آباؤه في البراري، وكذلك الخوف والغموض المتسربلَيْن بالبرد والظلام قد عرفهما أجداده أيضًا. أما تأثّره العميق بما سمعه، فهو يعني اكتمال عودته بالذكرى عبر عصر اكتشاف الإنسان للنار وسُكنى الكهوف، ثم إلى بدايات الحياة في عصور العواء البالغة القدم.

غادر أعضاء الفريق مدينة «داوسون» بعد أسبوع من وصولهم إليها، حيث انطلقوا إلى الضفة المنحدرة لنهر «يوكن»، مارّين بثكنات الشرطة، ثم إلى طريق «يوكن»، في طريقهم إلى مدينة «دايي» ومنطقة «سولت ووتر». كان ييرو يهدف في رحلة العودة تلك إلى تحقيق أسرع رحلة بريد لهذا العام، فهو يحمل حمولة بريدية مطلوبًا توصيلها بسرعة أكبر من تلك التي أتى بها إلى «داوسون»، وقد زاد من حماسته لتحقيق ذلك اعتزازه بنفسه وبخبرته في السفر في تلك المناطق الوعرة. والحقّ أن

الظروف كانت مواتية لتحقيق ذلك الهدف، فالكلاب قد استردّت عافيتها في ذلك الأسبوع، وأصبحت في حالة مناسبة تمامًا لبدء الرحلة، والطريق الجليدي الذين كان أول من ارتاده إلى المدينة صار ممهّدًا بسبب المرور عليه بعدهم. وبالإضافة إلى كل ذلك، كان مزهوًّا بأنه يسافر وقد تخفّف من كثير من أحماله، إذ خصصت الشرطة بضع مواضع على الطريق وفّرت فيها الطعام للبشر وللكلاب.

وصلوا في ذلك اليوم إلى نقطة «سيكستي مايل» التي تبعد نحو خمسين ميلًا، وفي اليوم التالي قطعوا مسافة لا بأس بها في طريقهم إلى «ييلّلي». تحقّق ذلك الإنجاز، لكن بكثير من المشاكل والإزعاج لفرانسوا، إذ إن التمرّد اللئيم الذي قاده باك حطّم تماسك أعضاء الفريق، فلم تعُد الكلاب كأنّها كلب واحد يثِب وهو يشد سيور الزلّاجة. لقد أدّى تشجيع باك للكلاب الأخرى على التمرّد إلى ارتكابهم كل أنواع المخالفات. ولم يعُد سبيتز القائد الذي يخشاه الجميع، إذ فارقته هيبته القديمة، حتى كادت الكلاب التي لا تعترض تتحدّى سلطته. وانتزع منه

يايك ذات ليلة نصف سمكة، وازدردها تحت حماية باك، وفي ليلة أخرى تعارك معه داب وچو واضطراه إلى التراجع عن أن يوقع بهما العقاب الذي كان يفرضه. أيضًا بيللي ذو الطبيعة الهادئة، لم تعُد طبيعته بالهدوء نفسه، ولم يعد توجّعه خافتًا كما كان في الأيام الماضية. أما باك فهو لا يقترب من سبيتز إلا ويزوم متوعّدًا وقد انتفش شعره. والحق أنه كان يتعمّد إغاظته، فيسير أمامه في صلف واختيال.

تأثرت علاقة الكلاب في ما بينها تأثرًا كبيرًا بانهيار تماسك الفريق، فزاد العراك والمشاحنات، حتى إن المخيم في بعض الأوقات كان يغرق في الفوضى، وتتعالى أصوات العواء في كلّ مكان. الكلبان ديـﷺ وسول – ليكس فقط لما يتغيّرا، رغم أن كثرة المشاحنات أصابتهما بقدر كبير من التوتر. أما فرانسوا فهو عندما يستبدّ به الغضب يسبّهم جميعًا ويصبّ اللعنات عليهم، ويدقّ الجليد بقدميه، بل يشد شعره غضبًا، من دون فائدة. وما أكثر ما صدح سوطه في الفضاء ولكن بلا جدوى، فما أن يلتفت بعيدًا عنهم حتى يشتعل الشجار مرة أخرى. استخدم فرانسوا

سوطه، في مساندة سبيتز، على حين شجّع باك الكلاب الأخرى على التمرّد، ورغم أن فرانسوا أدرك أن باك هو سبب المشكلات، وكان باك من ناحيته يعرف ذلك، فقد كان باك من الدهاء بحيث نجح في تجنّب الإمساك به مرة أخرى متلبّسًا بأي مخالفة. ولا شك أن باك كان يعمل بإخلاص في جر الزلّاجة، إذ كان يستمتع بذلك، غير أنه وجد متعة أكبر في استخدام دهائه في إشعال العراك بين زملائه، وفي شبك سيور الزلّاجة ببعضها إلى أن تتعقّد.

وذات ليلة، بعد تناول العشاء، وقد وصلوا عند التقاء نهر «تاهكينا» بنهر «يوكن»، عثر الكلب «داب» على أحد أرانب الثلوج البرية، فاندفع منقضًّا عليه، لكنه أخطأه، وفي لحظة واحدة علا صوت الفريق كلّه بالصراخ بعد أن شرعوا في الجري لاقتناص ذلك الأرنب، وانضم إليهم في المطاردة حوالي خمسين كلبًا من فصيلة «هاسكي»، كانوا في نقطة شرطة «نورثوست»، على بعد مائة ياردة تقريبًا. أسرع الأرنب بالقفز على سطح النهر ثم انعطف جانبًا مع أحد الجداول الصغيرة، ومنه عاد إلى

سطح الجليد الذي انزلق عليه بسرعة ونعومة وثبات كأنه على سرير وثير، بينما الكلاب تبذل كثيرًا من الجهد وهي تتخبّط محاولة اللحاق به. قاد باك فريق المطاردة المكوّن من حوالي ستين كلبًا، من منعطف إلى آخر، غير أنه لم ينجح في الإمساك بالفريسة. عندئذٍ تمدّد على الجليد، وارتفعت أنّاته المحبطة، وتطلّع عاليًا فرأى نفسه بعين الخيال يقفز بجسمه القوي خطوة خطوة خلف الأرنب في ضوء القمر الباهت البياض، وكأنه طيف جليدي شاحب، على حين أخذ الأرنب الجليدي يتواثب أمامه.

إن الغرائز التي تدفع بعض الرجال أحيانًا إلى الخروج من المدن الحديثة إلى الغابات والسهول بغرض قتل الحيوانات، مستخدمين في ذلك طلقات الرصاص، وما يرتبط بذلك من متعة القتل وشهوة إراقة الدماء، هي ذاتها الغرائز التي أخذت تضطرم داخل باك، غير أنها بالنسبة له كانت جزءًا جوهريًّا من نفسه. اندفع باك إذًا يقود فريق المطارِدين

للفريسة البرّيّة، وهو يتوق إلى أن ينتزع الحياة بأسنانه من ذلك الكائن الحيّ، ويغسل وجهه حتى العينين بالدماء الدافئة.

ثمة نقطة تمثّل ذروة نشوة الحياة لكل كائنٍ حيٍّ، وبعد تلك النقطة تفقد الحياة كثيرًا من معناها، وهذه هي المفارقة التي تنطوي عليها تلك اللحظة. لحظة الذروة هذه يعرفها الإنسان عندما تكون حياته في أوج اكتمالها، فإذا وصل إليها ذهل من حقيقة أنه حيّ. هذه اللحظة الملتبسة يعرفها الفنان وقد ذُهل من نفسه في لوحة يرسمها، ويعيشها الجندي، المجنون بالحرب، في ساحة القتال، يحيط به الموت ويرفض العفو الذي يُقدّم له رغم أنه يمنحه الحياة من جديد. هذه اللحظة تأتي الآن لباك؛ حيث يقود فريق المطاردين، ويطلق صيحة الذئب القديمة، مطاردًا طعامه الذي يضج بالحياة وهو يفرّ من أمامه بخفّة في ضوء القمر. كان باك في تلك اللحظة يسبر أعماق طبيعته الموغلة في القدم، بل تلك الأعماق التي كانت في الحقيقة سابقة على حياته، فكأنما هو يغوص في رحم الزمن. وقد خضع في تلك اللحظات لانبعاث مطلق لحياته،

للموجة العاتية لوجوده. إنها المتعة الكاملة لكلّ عضلة في جسمه، وكلّ مفصل، وكل عصب. كلّها كانت أبعد ما تكون عن الموت، بل متوهّجة في جموح، تعبِّر عن نفسها في الحركة، وتطير بابتهاج تحت نجوم السماء اللامعة، وفوق أديم الأرض الساكنة سكون الموتى.

أما سبيتز، الذي كان يظلّ هادئًا حذرًا متبصّرًا، حتى في أسوأ الظروف، فقد ترك المجموعة تجري في طريقها وانحرف إلى طريق جانبي ضيّق لم يعرفه باك، هكذا استمر باك في ركضه خلف الفريسة، وبينما هما في أحد منحنيات الطريق، فوجئ بشبح جليدي أكبر ينقضّ على شبح الأرنب المطارد من على أحد جانبي الطريق، وكان ذلك الشبح هو سبيتز. لم يترك للأرنب فرصة للهرب، وعندما أنشب سبيتز أسنانه القوية في ظهر الفريسة المعلقة في الهواء، وقصمت ظهره، صدرت عنه صرخة مفزعة، كأنما تصدر عن بشر. أما مجموعة المطارِدين فقد ندت عنهم صيحة ابتهاج، ردًا على صرخة الأرنب المريعة، التي تُمثل في حقيقة الأمر صرخة الحياة في أوج تألقها عندما تقع في قبضة الموت.

لم يشارك باك زملاءه في صرخة البهجة، بل انطلق من دون تفكير منقضًّا على سبيتز فاصطدم الكتفان بشدّة، ولم يستطع باك أن ينشب أسنانه في رقبة غريمه كما أراد، لكنهما التحما وتدحرجا على الأرض معًا. استعاد سبيتز توازنه بسرعة، وكأنما لم يسقط، والأكثر من ذلك أنه تمكّن من نهش كتف باك قبل أن يرتدّ واقفًا على قوائمه. انطبق فكّا سبيتز مرتين على جسم باك، وكأنهما فكَّا مصيدة من الصلب، قبل أن يرتد إلى مكانه وقد استعاد توازنه، وهو يزوم وقد انفرجت شفتاه إلى الوراء في حدة.

أدرك باك في تلك اللحظة أن الوقت قد حان، وأن تلك المعركة لن تنتهي إلا بموت أحدهما. وبدا المشهد مألوفًا لباك، إذ هما يزومان متواجهَيْن، ويدوران، آذانهما مشدودة إلى الوراء، وكل منهما يرقب الآخر متحفّزًا ومتحيّنًا الفرصة للهجوم. لقد بدأ يتذكّر كل شيء: الأرض المغطاة بالجليد، والنباتات المُغلّفة باللون نفسه، وضوء القمر، والتوق للقتال. سيطر هدوء شفيف على المكان الغارق في البياض والصمت،

من دون أي نفثة هواء أو حفيف ورقة شجر، لا شيء سوى أنفاس الغريمين تتصاعد متعرجة ببطء في الهواء المشبع بالصقيع. أما الكلاب الأخرى، التي لم تكن سوى ذئاب سيئة التدجين، فقد انتهت من وجبتها السريعة، ثم شرعت - كما هو مُتوقّع - في التحلّق حول الكلبين المتعاركين. هذه الحيوانات كانت أيضًا غارقة في السكون، فقط عيونها تلمع وأنفاسها تتصاعد متلاحقة في الهواء. وبدا لباك أن لا شيء جديدًا، أو غريبًا، بل هو المشهد القديم نفسه، والأمور مثلما كانت دائمًا.

كان سبيتز مقاتلًا متمرّسًا، ينتمي إلى منطقة «سبيتزبيرج» في النرويج. طاف بالقطب الشمالي، ومنطقة «بارنز» القاحلة في كندا، ونجح في مواجهة كل أنواع الكلاب وحقّق السيادة عليها. عرف سبيتز الغضب المتّقد، لكنه أبدًا لم يسمح للغضب الأعمى أن يسيطر عليه. ومهما بلغت به الرغبة في الانقضاض على خصمه، فهو لا ينسى أبدًا أن هذا الخصم لديه الرغبة نفسها في القضاء عليه، لذلك هو لا يهاجم إلا إذا كان مستعدًّا لمواجهة الهجوم المضاد وقادرًا على الدفاع عن نفسه.

بذل باك جهدًا كبيرًا محاولًا أن يغرز أسنانه في عنق الكلب الأبيض الكبير الحجم، لكنه لم يُفلح، فكلما هاجم بأنيابه اصطدمت بأنياب سبيتز بدلًا من أن تغوص في لحمه. نعم، اصطكت الأنياب وتقطّعت الشفاه وسالت الدماء، لكن باك أخفق في اختراق دفاعات غريمه. استجمع باك حماسته وطاقته مرة أخرى، ثم أمطر خصمه بعدة هجمات توالت بسرعة كبيرة؛ مرات ومرات حاول أن يصل إلى ذلك العنق الثلجي البياض حيث تفور طاقة الحياة قريبًا من السطح، وفي كل مرة يفشل باك على حين ينجح سبيتز في أن يصيبه بجروح ثم يبتعد مسرعًا. ثم لجأ باك إلى محاولة أخرى، وهي أن ينطلق وكأنه سينقض على عنق خصمه، ثم يرتد برأسه فجأة، ويعاود الهجوم منحنيًا من أحد الجانبين، وكأن كتفه مطرقة يحاول أن يلقي بها غريمه جانبًا، غير أن الخطّة لم تنجح، على حين تمكّن سبيتز من نهش كتف باك عدة مرات، وفي كل منها يرتدّ بخفّة سالمًا.

أخذ باك في اللهاث، وقد غطّته الجروح وأخذت الدماء تسيل منه، على حين لم يعانِ سبيتز من أي جروح. وبدا الموقف داعيًا ليأس باك، خصوصًا وأن دائرة الكلاب الذئاب تنتظر صامتة للإجهاز على المقاتل المهزوم. أخذ سبيتز يقوم بهجمات متتالية، على حين يزداد لهاث باك وهو يحاول جاهدًا الحفاظ على توازنه، وحين كاد يسقط على الأرض تحت وقع الضربات، أخذت دائرة الكلاب الذئبية تضيق حوله، غير أنه تمالك نفسه، وهو معلّق في الهواء، واستقر على الأرض منتصبًا على قوائمه، فتراجعت الكلاب، واتسعت الدائرة.

امتلك باك صفة تميّزه عن الآخرين، ألا وهي الخيال. نعم، كان يقاتل بالفطرة، غير أنه كان قادرًا على استخدام رأسه أيضًا. اندفع باك، وكأنه يحاول خدعة الكتف السابقة، لكنه في اللحظة الأخيرة مال برأسه إلى أسفل، وقضم بأسنانه القائمة الأمامية اليسرى لسبيتز. عندئذٍ، سُمع صوت قرقعة عظام تتكسّر، وصار على الكلب الأبيض أن يواجه غريمه بثلاث قوائم فقط. حاول باك لثلاث مرات متتالية أن يُلقي سبيتز أرضًا

من دون جدوى، ثم كرّر الخدعة السابقة فكسر القائمة الأمامية اليمنى. ورغم الألم والشعور بالعجز، فقد جاهد سبيتز بجنون لكي يظلَّ متماسكًا. لقد رأى الدائرة الصامتة، وعيون الكلاب البراقة، وألسنتها المدلّاة، وأنفاسها الفضّية اللون تتصاعد في الفضاء. ها هي ذي الدائرة تضيق من حوله كما رآها من قبل تضيق حول مهزومين آخرين في الماضي، لكنه في هذه المرة هو البطل المهزوم.

لم يكن ثمة أمل لسبيتز، أما باك فلم يكن ليتراجع، ولم يكن للرحمة مكان في هذا المناخ القاسي. وهكذا شرع باك في المناورة من أجل الهجوم الأخير، في حين أخذت الدائرة تضيق حتى إنه أحسّ بأنفاس كلاب الـ«هاسكي» على خاصرتيه، وتمكّن من رؤيتها خلف سبيتز وعلى الجانبين، وقد تركّزت أبصارها عليه، واستعدّت للانقضاض. ساد الصمت للحظات، ولم تصدر أي حركة عن الكلاب، حتى بدت كالتماثيل. سبيتز فقط أخذ ينتفض مترنّحًا وقد انتفش شعره، ثم بدأ في الزمجرة بصوت رهيب متوعّد، كأنما ليخيف الموت الذي يتربّص به.

وأخيرًا انقض عليه باك، فاصطدم الكتفان بقوة، وسقط سبيتز. صارت الدائرة المظلمة مجرّد نقطة صغيرة، على الجليد الغارق في ضوء القمر، على حين اختفى سبيتز من المشهد. ووقف باك مراقبًا المشهد. إنه الآن البطل المنتصر، الوحش البدائي المسيطر الذي خاض تجربة القتل لأول مرة، واستمتع بها.

٤ – من ظفر بالسيادة

– «ألم أقل لكم؟». لقد كنت على حق عندما قلت عن باك إنه شيطان كبير».

هكذا صاح فرانسوا عندما اكتشف غياب سبيتز، ورأى الجراح تغطّي جسم باك. عندئذٍ ساق باك أمامه حيث تفحّص تلك الجراح على ضوء النار.

علّق ييرو على كلمات فرانسوا، وهو مشغول بفحص الضلوع المكسورة والجراح الفاغرة المدمّاة:

– «لقد كان سبيتز يقاتل بشراسة».

فجاءت إجابة فرانسوا سريعة:

– «ولا شك أن باك قاتل بشراسة أكبر». ثم أضاف:

«والآن ستسير الأمور بشكل أفضل، من دون سبيتز. ولن تكون هناك أي مشكلات».

شرع فرانسوا - سائق الزلّاجة - في ربط الكلاب بالسيور، بينما انشغل ييرو بوضع معدات التخييم، والحمولة البريدية على الزلّاجة، استعدادًا للانطلاق. هرول باك إلى موقع القائد الذي اعتاد سبيتز أن يحتلّه، غير أن فرانسوا الذي لم يلاحظ ذلك، أحضر الكلب سول - ليكس إلى ذلك الموقع المُمَيَّز، ففي رأيه كان ذلك الكلب هو الأنسب لدور القائد. اندفع باك في تلك اللحظة وقد استبد به الغضب، فدفع سول - ليكس إلى الخلف واحتل مكانه. صاح فرانسوا وهو يضرب فخذيه في مرح:

- «ما هذا؟ انظروا إلى باك، لقد قتل سبيتز والآن يريد أن يأخذ مكانه». ثم التفت إلى باك وهو يصيح:

«اِذهب بعيدًا أيها الكلب».

رفض باك أن يتزحزح من مكانه، فأمسكه فرانسوا من مؤخرة عنقه، ونحّاه جانبًا، رغم زمجرته التي تعالت مهدِّدة، ثم أعاد سول - ليكس إلى موقع القيادة، رغم تمنّع الأخير الذي أظهر بوضوح خوفه من باك.

نعم، كان فرانسوا عنيدًا مصرًّا على رأيه، لكنه ما إن التفت بظهره، حتى عاد باك إلى أخذ مكان سول - ليكس، الذي لم يُبدِ أي اعتراض.

غضب فرانسوا غضبًا شديدًا، وأتى وهو يحمل هراوة ضخمة في يده، ثم صرخ فيه:

«أقسم بالله! أن لا مفرّ من تأديبك إذًا».

تذكّر باك الرجل ذا السترة الحمراء، فتراجع ببطء، ولم يحاول أن يتدخّل مرة أخرى عندما رأى سول - ليكس يعود ليشغل مكان القائد. ثم أخذ يزوم في غضب ومرارة، وهو يدور حولهم بعيدًا عن مرمى الهراوة، وعيناه لا تتحوّلان عنها حتى يمكنه تفاديها إذا رماها فرانسوا ناحيته. لقد صار باك خبيرًا في التعامل مع الهراوات.

عاد سائق الزلّاجة لتأدية مهمّاته قبل الانطلاق، ثم نادى باك ليقوم بربطه بسيور الزلّاجة في مكانه القديم أمام ديﷺ، لكن باك تراجع لخطوتين أو ثلاث، فتبعه فرانسوا، فتراجع باك مرة أخرى، وهكذا استمر الحال لبعض الوقت ما بين تقدّم وتأخر. وفي النهاية ألقى فرانسوا بالعصا

أرضًا، معتقدًا بأن باك كان يخشى التعرّض للضرب، لكن باك في حقيقة الأمر كان في حالة عصيان سافر. هدفه لم يكن الهروب من الضرب، بل الحصول على القيادة، فهي حقّه المكتسب، ولن يرضى بأقل منها.

حاول بيرو أن يساعد فرانسوا، وظلّا معًا يطاردانه لما يقرب من ساعة: قذفاه بالهراوات، فنجح في تجنّبها، وصرخا فيه، واستنزلا اللعنات عليه وعلى أبويه، وأسلافه جميعًا، وعلى نسله القادم حتى آخر جيل، وعلى كل شعرة في جسمه وكل نقطة دماء تجري في أوردته، فلم يزد على أن يزوم ويروغ منهما حتى يبتعد عن متناول أيديهم. لم يحاول باك الفرار، لكنه ظلّ يدور بعيدًا على أطراف المخيم، معلنًا بوضوح أنه حين تُلبّى رغبته، سوف يعود، ويلتزم بالطاعة.

جلس فرانسوا وأخذ يحكّ رأسه متفكِّرًا، أما بيرو فقد نظر في ساعته ثم استأنف السباب. لكن كان الوقت يمرّ، وكان عليهم أن يبدأوا رحلتهم منذ ما يزيد على ساعة. حكَّ فرانسوا رأسه مرة أخرى، ثم ابتسم محرجًا لزميله مسؤول البريد، الذي هزّ كتفيه لا مباليًا، وكأنما يقول: «لقد

هُزمنا». عندئذٍ تقدّم فرانسوا إلى حيث يقف سول - ليكس وتلفّت باحثًا عن باك، الذي ضحك، كما تضحك الكلاب، وإن ظلَّ واقفًا على مبعدة منهما.

حلّ فرانسوا سول - ليكس، وأعاده إلى موضعه القديم. واصطفت الكلاب كلّها في خطٍّ متّصلٍ، واحدًا تلو الآخر، استعدادًا للانطلاق، وليس ثمة مكان لباك إلا في المقدّمة، ومرة أخرى نادى فرانسوا، وضحك باك من بعيد. وفجأة ارتفع صوت ييرو آمرًا:

- «فلتُلقَ الهراوة على الأرض».

وما إن أطاع فرانسوا الأمر، حتى هرول باك مقتربًا، وهو يضحك ضحكة الانتصار، ثم استقرّ في موقع القائد في مقدّمة الصف. رُبطت عندئذٍ سيور باك، وانطلقت الزلّاجة على الطريق الجليدي أخيرًا.

اكتشف فرانسوا قائد الزلّاجة، قبل منتصف ذلك اليوم، أنه عندما تنبّأ بمهارة باك، فإنه في الحقيقة لم يوفِّه حقّه، فقد أجاد باك في القيام بواجبات القيادة، وعندما احتاج الأمر للحكم الصائب على الأمور

ولسرعة التفكير، مع حسن التصرّف وسرعته، أثبت باك أنه متفوّق على الجميع، حتى سبيتز الذي طالما اعتقد فرانسوا أنه لم يرَ له مثيلًا.

لا شكّ أن وضع قواعد العمل وإلزام الرفاق بها كان هو المجال الحقيقي لتفوّق باك. دي﵄ وسول - ليكس لم يهتم كلاهما بتغيير القائد، فليس ذلك من شأنهما، فما يهتمان به فهو فقط الكدح ومزيد من الكدح في جرّ الزلّاجة، وطالما لم يتدخّل أحد في ذلك الأمر فلا شيء يعنيهما، حتى لو تولّى بيلّلي الهادئ الطبع القيادة، فلا شأن لهما بذلك ما دامت الأمور تسير بانتظام. أما بقية أعضاء الفريق فقد اتّسمت تصرفاتهم بشيء من العناد في الأيام الأخيرة لسبيتز، ولدهشة الرجلين نجح باك في وقت قصير في إعادة جوّ الانضباط إلى الفريق.

الكلب يـايك الذي كان يلي باك مباشرة في الصف، كان من عادته ألا يبذل مجهودًا أكثر من اللازم في الدفع بصدره مما يبطئ سرعة الجري، لكنه قبل نهاية ذلك اليوم وجد نفسه مضطرًّا إلى الجرّ أكثر مما اعتاد طوال حياته، وذلك بعد أن لاحظ باك تباطؤه، فظلّ يجذبه بشكل

سريع متكرّر. أما چو الكلب الشرس، فقد تعرّض للعقاب عدة مرات في المخيم في الليلة التالية، وهو ما لم ينجح سبيتز أبدًا في القيام به من قبل. الآن - وقد صار باك قائدًا - أخذ ببساطة يدفعه جانبًا، مستغلًا تفوّقه في الحجم، ويحرمه من بعض أنصبة الطعام، حتى توقّف عن خطف الطعام من زملائه، وجعل يئنّ طلبًا للرحمة.

تحسّن الجوّ العام للعمل في الفريق، واستعاد أعضاؤه تماسكهم القديم، وعادت الكلاب تركض كأنها كلب واحد مربوط في السيور. وفي منطقة «رينك رابيدس» اِنضم إلى الفريق كلبان محلّيان من فصيلة «هاسكي» هما تيك وكوونا، وقد انبهر فرانسوا بالسرعة التي تمكّن بها باك من احتوائهما في الفريق، حتى إنه صاح محدّثًا رفيقه:

«لم أرَ أبدًا مثل هذا الكلب. يا إلهي، إنه يساوي ألف دولار، لا أقل من ذلك. ما رأيك يا ييرو؟».

أومأ الأخير موافقًا، فهما يقطعان مسافات قياسية، والأمور تتحسّن يومًا بعد يوم. ومن ناحية أخرى كان الطريق في حالة ممتازة؛ مُمَهَّدًا

ومتماسكًا، ولم يعد الثلج يتساقط ويعطّلهم عن الانطلاق، كما إن الطقس لم يعد شديد البرودة إذ نزلت الحرارة إلى خمسين درجة تحت الصفر واستقرّت على ذلك طوال الرحلة. وتبادل الرجلان مهمتيّ قيادة الزلّاجة والجري بجوارها، على حين كانت الكلاب تركض معظم الوقت من دون توقّف إلا على فترات متباعدة.

وجد الفريق نهر «ثيرتي مايل» مغطًى بالجليد إلى حدٍّ كبيرٍ، وقد قطعوا في يوم واحد، مسافة قطعوها من قبل في عشرة أيام، ففي اندفاعة جري واحدة قطعوا بحماسة ستين ميلًا، من الجانب الواطئ من بحيرة «لي بارچ» إلى المنحدرات النهرية في «وايت هورس». كذلك انطلقوا في سرعة كبيرة عبر بحيرات «مارش» و«تاجيش» و«بينيت» التي تمتدّ لمسافة سبعين ميلًا، حتى إن أحد الرفيقين، الذي كان دوره في الجري وراء الزلّاجة اِضطُرَّ إلى أن يربط نفسه بحبل في مؤخّرتها. وفي الليلة الأخيرة من الأسبوع الثاني وصلوا إلى قمّة ممر «وايت ياس» الجبلي ثم

انحدروا في اتجاه مدينة «سكاجواي» التي رأوا أضواءها وأضواء سفنها تلمع تحتهم.

كان ذلك حقًّا إنجازًا جديرًا بالتسجيل، ففي كل يوم، ولمدة أسبوعين قطع الفريق أربعين ميلًا في المتوسّط، وفي الشارع الرئيسي لمدينة «سكاجواي» ظلّ ييرو وفرانسوا يحتفلان لمدة ثلاثة أيام، حيث انهمرت عليهما دعوات تناول الشراب، احتفاءً بوصولهما. أما الكلاب، فقد احتلّت بؤرة الاهتمام المستمرّ والإعجاب لجماعات من مروّضي الكلاب وسائقي الزلّاجات. وبعد عدة أيام، حاول ثلاثة أو أربعة، ينتمون إلى المنطقة الغربية، ارتكاب سرقات كبرى بالمدينة، فقضى رجال الشرطة عليهم، مجتذبين اهتمام الناس بعيدًا عن الكلاب. ثم وصلت إلى المدينة أوامر حكومية اقتضت مغادرة فرانسوا وييرو. نادى فرانسوا باك إليه، وأحاطه بذراعيه، وبكى. وكان ذلك آخر ما رأى باك من الرجلين، إذ خرجا من حياته إلى الأبد كما خرج آخرون قبلهما.

ثمة رجل من أصل إسكوتلندي صار هو المسؤول عن باك ورفاقه، وقد انطلقوا جميعًا، بصحبة عدد آخر من فرق الكلاب، في طريق العودة الشاق إلى مدينة «داوسون». لم يكن الأمر هيِّنًا هذه المرّة، ولم يستغرق وقتًا قياسيًّا، بل كدحٌ شاقٌّ كل يوم، وحملٌ ثقيلٌ تجرّه الزلّاجة، فهذا هو قطار البريد يحمل الرسائل من العالم إلى الرجال الذين يبحثون عن الذهب في القطب الشمالي.

لم يُحبّ باك العمل كثيرًا، لكنه أحسن احتماله، معتزًّا به، على غرار زميليه ديـﷺ وسول - ليكس، معتقدًا بأن رفاقه، سواءً كانوا فخورين بعملهم أو لا، يقومون بأداء واجبهم على خير وجه. وبدت الحياة رتيبة إلى حدٍّ كبيرٍ، فهي تسير بانتظام كأنها آلة. كل يوم يشبه الآخر تمامًا، ففي كل صباح يقوم الطهاة بإشعال النار وتحضير الطعام، فيتناول الجميع فطورهم، ثم يقوم بعض أعضاء الفريق بفكِّ الخيام، بينما ينشغل آخرون بربط الكلاب بالسيور إلى الزلّاجة، وقبل نحو ساعة من انقشاع الظلام معلنًا حلول الفجر، ينطلقون جميعًا على الطريق. ويُقام في المساء، مخيّمٌ

سريعٌ، فيعمل بعضهم في نصب الخيام، وآخرون يقطعون بعض الأخشاب لنار التدفئة، وبعض يقطع أفرع شجر الصنوبر ليتّخذوا منها أسِرّة، وثمة مجموعة ثالثة تقوم بإحضار الماء أو الجليد الضروري للطهو. وكان ذلك - بطبيعة الحال - هو وقت إطعام الكلاب، وهي أهم ساعات اليوم، بالنسبة لها، ومنها من كان يستمتع بالتجوّل بعد أكل سمكة العشاء، لما يقرب من ساعة مع بقيّة الكلاب التي بلغ عددها خمسين زوجًا، وفرد واحد. وبعض تلك الكلاب كان شديد العدوانية، وقد قامت ثلاث معارك بين الأشرس منها وبين باك، وانتهت بتنصيب باك في موقع الرئاسة، ولذلك كانت الكلاب كلّها تبتعد عن طريقه إذا زوّم وكشّر عن أنيابه.

وكان أحب الأشياء إلى باك رقاده بالقرب من النار، وقائمتاه الخلفيتان مطويتان تحته، والأماميتان ممدودتان أمامه، وقد ارتفع رأسه، وأخذت عيناه تومضان وهو ينظر حالمًا إلى لهيب النار. كان في بعض الأحيان يتذكّر مزرعة القاضي ميللر في وادي سانتا كلارا المشمس،

وحوض السباحة الإسمنتي، والكلبين: «إيزابيل» المكسيكية التي بلا وبر، و«تووتس» الياباني من فصيلة اليَك. أما في أكثر الأحيان، فهو يتذكّر الرجل ذا السترة الحمراء، وموت كيرلي، والمعركة الفاصلة مع سبيتز، كما يتذكّر الأشياء الجيّدة التي أكلها وتلك التي يود أن يأكلها.

لم يشعر باك بالحنين إلى بيته الأول، إذ بدت تلك المنطقة الجنوبية الدافئة باهتة تمامًا كأنها في عمقٍ سحيقٍ من ذاكرته، ولذلك، فإن حوادث تلك الفترة باتت من دون أي تأثير عليه. أما الذكريات ذات التأثير القوي حقًّا، فهي تلك التي ارتبطت بالصفات الموروثة التي انتقلت إليه من أسلافه. لقد جعلته تلك الصفات يشعر بالألفة مع أشياء لم يسبق له أن رآها، ومشاعر لم يسبق له أن عاشها؛ إنها الغرائز التي لم تكن سوى ذكريات أسلافه وقد تحوّلت إلى عادات، ثم غابت عن حياته في مرحلة ما، وها هي ذي الآن تنبعث حيّة مرّة أخرى.

وقد حدث عدّة مرّات، بينما باك مستلقٍ بجوار النار، أن رأى بعينيه اللتين تومضان وهو ينظر حالمًا إلى اللهيب، وكأنه مستلقٍ إلى جوار نار

أخرى – في زمن سحيق في قِدَمه – وكأن الرجل الواقف بجواره ليس هو الطباخ ذو الأصل المختلط، وإنما رجل آخر ينتمي إلى ذلك الزمن السحيق نفسه. ذلك الرجل الذي يراه بعين الحلم، كانت رجلاه أقصر ويداه أطول، وعضلاته ليفية ذات عقد، وليست مستديرة منتفخة كالرجال الذين اعتاد رؤيتهم. أما شعره فهو طويل مُلَبّد، ورأسه مائلة إلى الأمام. ذلك الرجل يصدر أصواتًا غريبة، ويبدو دائمًا خائفًا من الظلام، الذي يحدّق فيه بشكل شبه دائم، قابضًا بيده التي تتدلّى حتى تصل إلى ما بين قدمه وركبته، على عصا قوية تنتهي في طرفها بحجر ثقيل مربوط فيها بإحكام. وكان الرجل شبه عارٍ، إلا من قطعة جلد رثة، طالتها النار من قبل، تدور حول وسطه وتتدلّى على ظهره. وقد غطى الشعر الكثيف معظم جسمه، وفي عدة مواضع، عبر صدره وكتفيه، والناحية الخارجية من ذراعيه وفخذيه على سبيل المثال، حتى بدا كأنه فراء كثيف. ولم يقف ذلك الرجل منتصبًا، بل مال جذعه إلى الأمام عند الخصرَيْن، كذلك انحنت رجلاه إلى الأمام بدءًا من الركبتين. كان الرجل مثيرًا

للدهشة بذلك القدر من المرونة والتوثّب، حتى بدا أشبه ما يكون بالقطط، وكذلك في حالة من التيقظ والاستعداد للانقضاض السريع، كأنه يعيش في خوف دائم من الأخطار المرئية وغير المرئية.

ذلك الرجل الذي يغطّي الشعر جسمه كان في بعض الأحيان يجلس القرفصاء بالقرب من النار، بحيث يضع رأسه بين ساقيه ويستغرق في النوم. عندئذٍ، يكون مرفقاه مستقرين على ركبتيه، وكفاه مشتبكتان فوق رأسه، وكأنما يستظلّ من الأمطار بذراعيه المُشعرتين. وهناك، بعيدًا عن النار، في الظلام الدامس المحيط بهم، يتمكّن باك من رؤية كريات كأنها من الجمر المتوهّج، وهي دائمًا اثنتين اثنتين، وقد أدرك أنها عيون لحيوانات مفترسة تحيط بهم. وسمع أصوات اصطدام أجسامها داخل منطقة النباتات والأشجار القصيرة التي تحيط بهم، والضوضاء التي تتسبّب فيها تلك الحيوانات بعد حلول الظلام. ولا غرابة في أن تلك الأحلام التي يغوص فيها باك، بما فيها من مشاهد وأصوات تأتيه من عالم آخر بعيد، بينما هو مستلقٍ بجوار النار على ضفة نهر «يوكن»،

يحدّق فيها بعينين كسولتين، كلّها تجعل شعر جسمه، ظهره وكتفيه ورقبته، ينتفش. وينتهي به الأمر وهو يئنّ بصوت مكبوت، أو يزمجر بصوتٍ خافتٍ، عندئذٍ يصيح به الطباخ ذو الأصل المختلط:

- «هيا استيقظ يا باك».

حينئذٍ، يتلاشى ذلك العالم الآخر، ويعود باك إلى عالمه الحقيقي، فيقوم من مكانه، ويتثاءب، ويتمطّى كأنما استيقظ من نوم عميق.

أجهدتهم الرحلة حقًّا، إذ كانت الكلاب تجُرّ حملًا ثقيلًا من البريد، وقد أرهقها العمل الشاقّ، فوصلت إلى مدينة «داوسون» وهي في حالة مزرية، وفقدت كثيرًا من الوزن. كان الجميع في حاجة إلى عشرة أيام من الراحة، أو أسبوع على الأقل، غير أنهم استأنفوا السير بعد يومين فقط، منحدرين من ثكنات الشرطة مع ضفة نهر «يوكن» محمّلين بالخطابات من المنطقة إلى العالم الخارجي. كانت الكلاب في غاية الإرهاق، وسائقو الزلّاجات يشعرون بالامتعاض، وزاد الأمر سوءًا بهطول الثلج كلِّ يوم، وذلك يعني طريقًا زلقًا يسيرون فيه، وقدرًا كبيرًا من الاحتكاك

المؤلم يعاني منه أولئك المكلفون بالجري بجوار الزلّاجات، وأيضًا جهدًا أكبر على الكلاب أن تبذله في الجرّ. وعلى كل حال، فقد حاول السائقون أقصى جهدهم في الاهتمام بالكلاب.

كانت العناية بالكلاب هي أول ما يقوم به الرجال في المساء، فالطعام يُقدّم لها قبل أن يتناول الآخرون طعامهم، ولا يخلع أيٌّ من السائقين ثياب السفر، قبل أن يفحص قوائم الكلاب التي تجرّ زلّاجته. ورغم ذلك كلّه، فقد تداعت قواها جميعًا. لقد سافرت تلك الكلاب لمسافة ألف وثمانمائة ميل منذ بداية الشتاء، وهي تجرّ الزلّاجات طوال تلك الرحلة الوعرة. وكانت تلك المسافة الطويلة كافية لاختبار قدرات الكلاب على التحمّل. لقد أحسن باك التحمّل، وتمكّن رغم إجهاده الشديد من الحفاظ على حماسة زملائه، كما نجح في حملهم على الالتزام بالنظام. صار بيلّلي يصرخ ويئنّ كل ليلة أثناء النوم، وازداد طبع چو المشاكس سوءًا، أما سول – ليكس، فلم يعد أحد يستطيع الاقتراب منه، سواءً من جانبه المبصر أو حتى من الجانب الآخر.

وكان دي﵃ أكثر الكلاب تأثُّرًا بذلك المجهود الكبير، إذ صار كثير التجهّم، سريع الهياج، وما إن ينتهي السير في المساء ويُجَهَّز المخيّم، حتى ينصرف إلى إعداد عشّه الجليدي، حيث يأتي له سائق الزلّاجة بطعامه. وهو لا يتحرّك من مكانه بعد فك سيوره في المساء إلى أن يأتي وقت ربط السيور مرة أخرى في الصباح التالي. وفي بعض الأحيان، بينما دي﵃ مربوط بسيور الزلّاجة يكاد يفقد توازنه فجأة بسبب التوقّف المفاجئ للزلاجة، أو بسبب اضطراره لبذل مجهود أكبر في الجر، عندئذٍ يصرخ متألّمًا. لقد فحصه السائق، لكنه لم يهتدِ إلى شيء، وبات كلّ السائقين مهتمّين بحالته، وأخذوا يتناقشون بخصوصها على العشاء، وبينما يدخّنون سجائر ما قبل النوم. وفي إحدى الليالي أتَوا به من خيمته إلى مجلسهم بجوار النار، فأخذوا يضغطون على جسمه هنا ويغرزون أصابعهم هناك حتّى صرخ متألّمًا عدّة مرات، على حين لم يصلوا إلى فهم شيء مما يحدث له. لا بد أن إصابةً ما قد حلّت به، لكنهم أخفقوا

في تحديد ما يحدث في الداخل، أو تخمين عظام مكسورة، أو شيء من هذا القبيل يفسّر ما يحدث له.

عندما وصل قطار الزلّاجات إلى منطقة «كاسيار بار»، كان التعب قد بلغ من ديـ كل مبلغ، حتى إن سقوطه، مشتبكًا بالسيور، تكرّر عدة مرات. السائق الهجين ذو الأصل الإسكوتلندي، أوقف الرّتل، وأخرج ديـ وربط الكلب الذي يليه في الترتيب، وهو سول - ليكس مكانه، بهدف إعطائه بعض الراحة، إذ تركه يجري بحرّية خلف الزلّاجة. ديـ من ناحيته كره - رغم مرضه الشديد - أن يُنتزَع من مكانه، فأخذ يغمغم ويزمجر بينما الرجل يفكّ السيور، ثم بدأ يئنّ بقلب منكسر وهو يرى سول - ليكس يُربط في الموضع الذي شغله وأبلى فيه بلاءً حسنًا لزمن طويل. لقد كان معتزًا بدوره في جرّ الزلّاجة، ورغم مرضه القاسي، الذي قد يقضي عليه، لم يستطع أن يتحمل قيام كلب آخر بعمله.

وما إن شرعت الزلّاجة في التحرّك حتى أخذ ديـ يترنّح على الجليد الناعم، على جانب الطريق الجليدي الممهد، وهو يحاول أن

يهاجم سول - ليكس بأسنانه ويدفعه جانبًا، محاولًا أن يلقي به على الجليد إلى الجانب الآخر للطريق، وأن يندسّ في مكانه القديم أمام الزلّاجة، كل ذلك وهو لا يَكُف عن التأوه والنباح والصراخ في حزن وألم. حاول السائق أن يصرفه عما يفعل باستخدام السوط، غير أن ديـرضي الله عنهم لم يُبدِ أي اكتراث بالضربات الموجعة، أما الرجل فلم يطاوعه قلبه في توجيه لسعات أقوى بالسوط. رفض ديـرضي الله عنهم إذًا أن يركض بسلام خلف الزلّاجة، حيث يكون الأمر سهلًا، واستمرّ في الترنّح على الجليد الناعم بجوار الزلّاجة حتى نفدت قواه وسقط على الأرض. رقد ديـرضي الله عنهم حيث سقط، وأخذ يعوي بصوت كالنواح، بينما قطار الزلّاجات يمر بجواره.

تمكّن ديـرضي الله عنهم بما تبقّى له من قوّة من السير مترنّحًا خلف قطار الزلّاجات، حتى توقّفت للراحة، فاستمر في سيره بجوارها متعثّرًا حتى وصل إلى زلّاجته فوقف بمحاذاة سول - ليكس. انشغل سائق الزلّاجة للحظات بالحديث مع السائق الذي يليه في الصف، طالبًا منه إشعال

سيجارته، ثم عاد وأمر الكلاب بالانطلاق. حاولت الكلاب جرّ الزلّاجة، لكنها لم تتزحزح، فالتفتت مرتبكة إلى الخلف، ثم توقّفت مشدوهة. دُهش السائق أيضًا، ثم نادى زملاءه ليرَوا ذلك المشهد معه: لقد قطع ديـرضي الله عنهم السيور التي تربط سول - ليكس، ثم وقف مباشرة أمام الزلّاجة حيث موضعه الأصلي.

أخذ ديـرضي الله عنهم ينظر إلى السائق بعينين متوسّلتين، لكي يتركه في مكانه في الفريق، فتحيَّر الرجل بعض الوقت، ثم أخبره رفاقه أن قلب الكلب قد ينفطر عندما يُمنع عنه العمل ولو كان فيه هلاكه، وقصّوا عليه حكايات يعرفونها عن كلاب فارقت الحياة عندما فُكَّت سيورها ومُنعت من الجرّ، لكبرها في السن، أو لإصابتها بجراح. وقد رأوا أيضًا، وأدركوا أن الكلب قد اقتربت منيّته، وأنه من الرحمة أن يسمح له بالعودة إلى العمل، فيموت راضيًا معتزًّا بنفسه. وهكذا عاد ديـرضي الله عنهم إلى مكانه ورُبطت سيوره، وشرع فخورًا في شدّ الزلّاجة كما كانت عادته، ورغم ذلك فقد صرخ عدة مرات بشكل لا إرادي بسبب عضّات الألم بداخله. كذلك سقط أكثر من مرة

على الأرض، وقام أحدهم بجرّه وإعادة ربطه في سيور الزلّاجة، وحدث كذلك أن سقط ودهسته الزلّاجة، فظلّ منذئذٍ يعرج على إحدى ساقيه الخلفيتين.

نجح ديـرضي الله عنهم في الوصول إلى موضع المُخيّم، حيث هيّأ السائق له مكانًا بجوار النار. وفي الصباح كان قد بلغ من الضعف مبلغًا لا يمكنه معه السفر، لكن عندما حان وقت ربط السيور أخذ يزحف محاولًا الوصول إلى السائق، ثم أخذ جسمه يختلج متشنِّجًا حتى تمكّن من الوقوف، غير أنه سرعان ما ترنّح وسقط. عاد ديـرضي الله عنهم يحاول بحركة متمايلة بطيئة أن يشقّ طريقه مرّة أخرى إلى حيث وقف زملاؤه ليُربطوا في الزلّاجات، فأخذ يمد قائمتيه الأماميتين ثم يحاول جرّ جسمه إلى الأمام، وبعد ذلك دفع قائمتيه الخلفيتين، وهو يأمل في أن يتمكّن من تحريك جسمه لبضع بوصات إلى الأمام، لكن قواه خارت ولم تسعفه، فرقد على الجليد وهو يلهث. وكان آخر ما رأته الكلاب من زميلهم

المريض هو تطلّعه إليها في لوعة وأسى، لكنّهم سمعوه يعوي نائحًا، إلى أن غابوا عن نظره وراء حزام من الأشجار على ضفة النهر.

عندئذٍ توقّف قطار الزلّاجات، وترجّل السائق ذو الأصل الإسكوتلندي، عائدًا إلى الموضع الذي تركوه فيه منذ قليل. توقّف الرجال عن الحديث، ودوّى في الفضاء صوت طلقة مسدس، ثم أسرع السائق بالعودة إلى مكانه. قرقعت سياط السائقين في الهواء، وجلجلت أجراس بنغمة مرحة، واندفعت الزلّاجات على الطريق الجليدي، وقد أدرك باك، وكذلك أدرك زملاؤه جميعًا ذلك الذي حدث خلف حزام الأشجار على ضفة النهر.

٥- كدح على الطريق

وصل رتل الزلّاجات - وفي مقدّمته باك وزملاؤه - إلى مدينة «سكاجواي»، حاملًا بريد «سولت ووتر»، بعد ثلاثين يومًا من انطلاقه من مدينة «داوسون». كانت الكلاب جميعًا في حالة بائسة، إذ استُنفِدت طاقاتها وكادت تنهار من الإجهاد. لقد تضاءل وزن باك من مائة وأربعين رطلًا إلى مائة وخمسة عشر، أما زملاؤه فرغم أنهم أخف وزنًا فقد فقدوا وزنًا أكبر مما فقد. زميله ياك الذي قضى عمره متمارضًا، وكثيرًا ما نجح في إيهام الناس بألم في ساقه، صار الآن يعاني - حقًّا وصدقًا - من العَرَج. سول - ليكس كان يعرج أيضًا، أما داب فهو يعاني من التواء مؤلم في لوح كتفه.

وقد عانت الكلاب جميعًا من قُروحات في أقدامها، فلم تعد لديها طاقة كافية للحركة بسلاسة إلى الأمام أو إلى لخلف. كانت تلك القوائم تسقط ثقيلة على الأرض، وتجد صعوبة في جرّ أجسام الكلاب نفسها، ناهيك عن جرِّ الزلّاجة، وهكذا يتضاعف المجهود الذي عليها بذله في

كلّ يوم. المعاناة الحقيقية لتلك الكلاب تمثّلت في الإنهاك المريع، وهو ليس ذلك الإنهاك الفظيع الذي ينتج عن المجهود الخارق لفترة وجيزة، ويمكن أن يعالج بعدة ساعات من الراحة، بل هو ذلك الإنهاك الفظيع الذي ينتج عن الاستنزاف البطيء والطويل للطاقة عبر شهور من الكدح. لم يعد في أجسام تلك الكلاب أي طاقة مخزونة تساعدها على استرداد عافيتها. لقد استنفدت كل ما لديها حتى آخر قطرة، واستبدّ الإنهاك الفظيع بكل جزء منها: كل عضلة، وكل خليّة وكل ذرّة. ولم يكن في ذلك أي غرابة، وقد قطعت تلك الكلاب مسافة ألفين وخمسمائة ميل، في أقل من خمسة شهور، وفي مسافة الألف وثمانمائة ميل الأخيرة، لم تنَل سوى خمسة أيام من الراحة. وهكذا وصلت الكلاب إلى مدينة «سكاجواي» وقد شارفت على الهلاك، واستطاعت بالكاد أن تحافظ على السيور معقودة في مكانها، وأن تحفظ نفسها من خطر الدهس تحت الزلّاجة في الطرق المنحدرة.

- «هيّا أيتها الكلاب المسكينة»، هكذا صاح السائق محاولًا تشجيع الكلاب وهي تكاد تتداعى على الطريق الرئيسي للمدينة. ثم أضاف:

«لقد وصلنا أخيرًا، وهذا آخر المطاف. هنا ستحصلون على راحة طويلة، طويلة بكل تأكيد».

نعم، توقّع السائقون - بكل ثقة - الحصول على وقت طويل للراحة، لكي يتمكّنوا من استعادة قواهم، فلقد قطعوا مسافة تُقدّر بألف ومائتي ميل مع فترة راحة لم تتعدَ يومين، وتقتضي أبسط قواعد الإنسانية، والعدل أن يحصلوا على فترة كافية من الراحة التامة. ومن ناحية أخرى، فإن كثيرًا من الرجال قد انطلقوا إلى منطقة «كلوندايك» بحثًا عن الذهب، وكثيرًا من زوجات هؤلاء الرجال وحبيباتهم وأقاربهم لم يذهبوا معهم، لذلك اكتظّت الزلّاجات بأكوام البريد المتزايدة حتى بلغت حجمًا كبيرًا جدًا، ويجب أن تصل إلى أصحابها. وقد جاءت توجيهات حكومية بأن دفعات من كلاب منطقة خليج «هدسون» ستحلّ محلّ تلك الكلاب التي صارت غير قادرة على مزيد من جرّ زلّاجات

البريد. أما تلك التي صارت بلا فائدة، فمن الضروري التخلّص منها، ولأن الكلاب أقلّ قيمة من الدولارات، فلا بد إذًا من بيعها.

مرّت ثلاثة أيام، أدرك خلالها باك وزملاؤه إلى أي حدٍّ هم متعَبون وضعفاء. وفي صباح اليوم الرابع أتى رجلان من الولايات المتحدة واشتريا الكلاب كلّها، بألجمتها، بثمن بخس. أما اسما الرجلين، كما سمعته الكلاب وكل منهما ينادي الآخر، فهما «هال» و«تشارلز». كان تشارلز رجلًا متوسط العمر، ذا بشرة فاتحة اللون، وعينين كليلتين دامعتين، ولديه شاربان مبرومان إلى أعلى بحدّة توحي بالعنف، ويكادان يخفيان الشفتين المتدليتين باسترخاء تحتهما. أما هال فكان أصغر سنًا، فلا يزيد بحال عن تسعة عشر عامًا أو عشرين، يحمل معه مسدسًا كبيرًا من نوع «كولت»، ويتمنطق بحزام تتعلّق به سكين للصيد، وينتفخ بطلقات الرصاص الحشوَّة بداخله. كان ذلك الحزام هو أوضح ما يدل على شخصيته، إذ يعلن عن افتقاده الكامل للنضج وقلّة خبرته التي لا توصف. الرجلان كلاهما بديَا في غير المكان المناسب لهما، أما لماذا

بالتحديد أرادا المغامرة بالسفر إلى الشمال، فسيظلّ من الأشياء الغامضة التي لن يتسنّى لنا فهمها أبدًا.

سمع باك الرجلين وهما يجادلان المندوب الحكومي بخصوص شراء الكلاب، ثم رأى المال ينتقل بين الطرفين، فأدرك أن السائق الهجين الإسكوتلندي الأصل وسائقي رتل البريد جميعًا سيختفون من حياته كما اختفى ييرو وفرانسوا وآخرون غيرهم من قبل. وعندما اقتيد باك وزملاؤه إلى مخيّم المُلّاك الجدد وجده ينضح بالقذارة والإهمال، فالخيمة نصف مفرودة، والأطباق متّسخة، والفوضى شاملة. ورأى هناك أيضًا امرأة يناديها الرجلان «ميرسيديس»، وهي زوجة تشارلي وأخت هال، فيا له من تجمّع أسريّ لطيف.

أخذ باك يراقب الثلاثة باستياء وهم يعملون في حلّ الخيمة وتعبئة الزلّاجة. بدا له أنهم يبذلون كثيرًا من الجهد، لكنه جهد غير منظّم، ولذلك لا يحقّقون إلا أقل القليل من الإنجاز، فالخيمة تكَوّمت على شكل صرة بثلاثة أضعاف المساحة التي يجب أن تحتلها، وصحون

الطعام المصنوعة من الصفيح وضعت مع بقية الأغراض من دون غسيل. وانطلقت ميرسيديس في تعطيل عمل الرجلين بسلسلة لا تكاد تنقطع من الثرثرة بالنصائح والأوامر، وعندما وضعا جوالًا من الملابس في مقدّمة الزلّاجة، اقترحت عليهما أن يضعاه في الخلفية، وبعد أن نفّذا اقتراحها، ثم غطّيا الجوال ببعض الصُرَر الأخرى، اكتشفت أن ثمة أغراضًا منسية يجب وضعها في ذلك الجوّال نفسه، فاضطُّرا إلى تفريغ الحمولة وإعادة تحميلها من جديد.

جاء ثلاثة رجال من خيمة مجاورة، وألقوا نظرة عليهم وعلى أغراضهم، وهم يتغامزون ويتبادلون الابتسامات باستخفاف، ثم قال أحدهم:

- «لقد حملتم الزلّاجة بمهارة حقًّا، وليس لي أن أتدخّل في شؤونكم، ولكن لو كنت مكانكم لما أخذت هذه الخيمة معي».

صاحت ميرسيديس وهي تلقي بيديها إلى أعلى في انزعاج وتعالٍ:

- «مستحيل. وكيف لي أن أُدبِّر أموري من دون خيمة؟».

فأجاب الرجل:

- «إنه الربيع، ولن يكون الطقس باردًا».

هزت ميرسيديس رأسها، بما يدلّ على تصميمها على رفض ذلك الاقتراح. ووضع تشارلز وهال بعض المتفرّقات الصغيرة على قمة جبل الأحمال الذي وُضع على الزلّاجة، استعدادًا للانطلاق.

سأل أحد الرجال:

- «أتعتقدون أن الزلّاجة ستسير حقًّا؟».

وردّ تشارلز باقتضاب:

- «ولم لا؟».

فأسرع الرجل يقول متلطّفًا:

- «لا توجد مشكلة، أنا فقط أتساءل، فالحِمل يبدو عاليًا وثقيلًا حتى ليكاد يفقد توازنه».

استدار تشارلز وبدأ يفكّ الوصلات التي تسمح للزلّاجة بالانطلاق، ورغم أنه بذل أقصى جهده فلم يحسن أداء عمله.

وانبرى رجل آخر يقول، في لهجة تأكيدية:

- «وبالطبع ستتمكّن الكلاب من السير طوال اليوم وهي تجرّ هذا الشيء».

فأجاب هال بأدب بارد:

- «بالطبع».

ثم أمسك بمقود الزلّاجة بإحدى يديه، على حين هزّ يده الثانية بسوطه، وهو يصيح بالكلاب:

«هيّا انطلقي أيتها الكلاب، هيّا إلى الأمام».

شدّت الكلاب عضلاتها، وأخذت تدفع ضاغطة على ألجمتها إلى الأمام لعدة دقائق، ثم استرخت عضلاتها. لقد أخفقت في جر الزلّاجة.

صرخ هال وهو يستعد لضربهم بالسوط:

«كم هي كسولة تلك الحيوانات، سأريها الآن».

عندئذٍ تدخلت ميرسيديس وهي تصيح:

- «لا، لا تفعل ذلك يا هال أرجوك»، ثم أمسكت بالسوط وانتزعته منه، وأضافت قائلة:

«والآن يجب أن تعدني بأنك لن تكون قاسيًا مع تلك الكلاب لما بقي من رحلتنا، وإلا فإنني لن أذهب معك ولا خطوة واحدة».

فأجابها أخوها ساخرًا:

- «يا لها من معلومات قيّمة تلك التي تعرفينها عن الكلاب!. أرجو أن تتركيني أتصرّف وحدي. هذه الكلاب كسولة، صدقيني. ولا مفرّ من ضربها بالسياط حتى تستطيعي الحصول على أيِّ شيء منها. هذه هي الطريقة المناسبة لها، ويمكن أن تتأكدي مما أقول. لم لا تسألين واحدًا من هؤلاء الرجال؟».

تطلّعت ميرسيديس إلى الرجال متوسّلة، وقد ارتسم على وجهها الجميل ضِيْقٌ لا يوصف لرؤية الألم المرتسم على وجوه الكلاب. وعندئذٍ جاءها الردّ من أحد الواقفين:

- «إذا كنتِ حقًّا تريدين أن تعرفي، فاعلمي أنها في غاية الضعف. لقد استنفدت الكلاب كلَّ طاقتها، وهي في حاجة ماسّة إلى قدر كافٍ من الراحة».

تكلّم هال، الحليق الشارب، فقال:

- «لا وقت للراحة».

تأوّهت ميرسيديس بحزنٍ وأسًى، ثم غلبها انتماؤها الأُسَري فاندفعت لمساندة أخيها، فقالت له بلهجة مؤكِّدة:

- «أنت تقود زلّاجتنا، والكلاب كلابنا، ولك أن تعاملهم بما تراه مناسبًا».

مرة أخرى تتابع سقوط سوط هال على رؤوس الكلاب، فأعادت المحاولة لجر الزلّاجة: اندفعت تشدّ معها سيورها، وتشبّثت قوائمها الأمامية بالجليد الصلد، على حين انخفضت بأجسامها إلى أن اقتربت من الأرض لتعطيها قوة أكبر على الانطلاق، ثم اندفعت إلى الأمام، لكن من دون جدوى، فلم تتزحزح الزلّاجة من مكانها، وكأنها سفينة مُثَبَّتة في الجليد بمرساة. بعد محاولة ثانية فاشلة وقفت الكلاب وهي تلهث. ومرة أخرى أخذ سوط هال يصفّر بوحشية، ثم تدخّلت ميرسيديس في الأمر مرّة أخرى. في هذه المرّة انحنت على ركبتيها بجوار باك، وقد امتلأت عيناها بالدموع، ووضعت ذراعيها حول عنقه، ثم صاحت بلهجة متعاطفة:

– «أيّتها الكلاب المسكينة، لماذا لا تحاولين الجرّ بكل قوالكِ، حتى لا تتعرّضي للضرب بالسوط؟».

لم يُحب باك تلك المرأة، غير أنه كان غارقًا في الشعور بالأسى، فلم يهتم بمقاومتها، وعدَّها جزءًا من العمل الشاقّ لذلك اليوم.

أحد المتابعين لما يجري كان قد صرّ على أسنانه ليكبح كلمات غاضبة، ثم رفع صوته:

- «لا يهمّني أمركم، ولو بمقدار ذرّة، لكنني - إشفاقًا على الكلاب - أودّ أن أخبركم أنه يمكنكم تقديم مساعدة عظيمة لها لو أنكم حرّرتم الزلّاجة من الجليد. إن نعليّ الزلّاجة الخشبيين يكادان يغوصان في الجليد لثقلهما، ويمكنكم أن تدفعا المقود بثقليكما ناحيتي اليمين واليسار لتحرير الزلّاجة من أسفل.

حاولت الكلاب مرة أخرى، ولكن بعد الاستماع إلى النصيحة، إذ قام هال بتحرير نعليّ الزلّاجة من الجليد، فبدأت تتحرّك ببطء رغم حملها الثقيل غير المستقرّ، نتيجة قيام الكلاب بمجهودات محمومة تحت وابل من ضربات السوط. وانعطف الطريق جانبًا بانحدارٍ حادٍّ إلى الشارع الرئيسي بعد نحو مائة ياردة إلى الأمام، وكان الأمر يتطلّب سائقًا ماهرًا ليحتفظ بتوازن الزلّاجة ذات الحِمل المرتفع غير المستقرِّ، ولم يكن هال ذلك الرجل. وهكذا انقلبت الزلّاجة وهي تنثني محاولةً اجتياز

المنعطف، وانسكب نصف حمولتها على الأرض، إذ لم تكن مربوطة بإحكام. ظلّت الكلاب تركض، وتجرّ وراءها الزلّاجة المقلوبة على أحد جانبيها وقد خفّ وزنها. نعم، كانت الكلاب غاضبة بسبب سوء المعاملة، والحمل الثقيل التي تجرّه. باك بالتحديد كان يغلي بالغضب، فأخذ يركض مسرعًا كالقذيفة، وانطلق باقي أفراد الفريق على إثره. أما هال فقد أخذ يصيح بها أن تتوقّف، فلم تلقِ إليه بالًا. تعثّر الرجل وسقط وانكفأت عليه الزلّاجة المقلوبة، على حين ظلّت الكلاب منطلقة في طريقها، وبدأ ما بقي من معدّات على الزلّاجة يتناثر على الطريق، بشكل يثير الضحك.

أخذ بعض المواطنين الطيبين يجمعون الأغراض المتناثرة في الشارع، واندفع آخرون يمسكون بالكلاب، كما تطوّعوا بتقديم النصيحة، التي تلخّصت في ضرورة تخفيف حمولة الزلّاجة إلى النصف ومضاعفة عدد الكلاب، إذا رغبوا في الوصول إلى «داوسون». استمع هال وأخته وزوجها إلى النصيحة متذمّرين، ثم نصبوا الخيمة، وقاموا

بإعادة النظر في لوازم السفر التي يحملونها. ضحك الحاضرون عندما رأوا الأطعمة المحفوظة التي لديهم، فهي أشياء لا تصلح للاستخدام على الطرق الجليدية الوعرة، وقال أحدهم متهكّمًا وهو يساعد في العمل:

– «البطاطين للاستخدام في الفنادق، ونصف هذه الكمية التي معكم لا لزوم لها، ليتكم تتخلّصون منها. وتخلّصوا أيضًا من الخيمة، ومن الصحون، ومن تظنونه سيغسلها؟ يا الله، ما هذا كله، هل تظنّون أنفسكم مسافرين في قطار أو بولمان فاخر؟».

وهكذا اضطرّت ميرسيديس رغم شخصيتها العنيدة إلى التخلّص من كل ما هو زائد على الحاجة. لقد بكت كما هي عادتها عندما أُلقيت حقائب ملابسها على الأرض، وظلّ بكاؤها يزداد مع كل قطعة ملابس تخلّت عنها، وأخذت تولول وقد شبكت كفيها حول ركبتيها، وهي تتأرجح بأسى إلى الأمام وإلى الخلف. في البداية أكدت أنها لن تتحرّك ولو لبوصة واحدة، لا لأجل تشارلز ولا لأجل عشرة مثله، ثم جعلت

تستغيث بجميع من حولها كي يجدوا حلًا آخر، وفي نهاية الأمر شرعت في إلقاء قطع من ملابسها، حتى تلك التي كانت تعدّها من الضروريات التي لا يمكن الاستغناء عنها. وعندما انتهت من مراجعة أغراضها، انقضّت بحماسة على أغراض أخيها وزوجها، فاجتاحتها كالإعصار! وقد ظلّت حمولة الزلّاجة، رغم اختصار نصف وزنها، زائدة، وكبيرة الحجم.

ذهب تشارلز وهال في المساء فابتاعا ستة كلاب أخرى مجلوبة من خارج البلاد، أُضيفت إلى الكلاب الستة في الفريق الأساسي، والكلبين تيك وكوونا، من فصيلة «هاسكي» اللذين انضما للفريق في منطقة «رينك رابيدس»، أثناء رحلة الرقم القياسي التي قام بها الفريق، وهكذا اكتمل الفريق أربعة عشر كلبًا. كانت الكلاب الآتية من الخارج غير ذات خبرة كبيرة بالجرّ، رغم أنها خضعت للتدريب بعد وصولها إلى البلاد.ثلاثة منها كانت من فصيلة «يوينتر القصير الشعر»، وواحد من فصيلة «نيوفاوندلاند»، والكلبان الأخيران من أصول مختلطة. نعم، بدت تلك

الكلاب على جهل تام بمهمّات الجرّ، ولذا نظر باك ورفاقه إليها نظرة فيها الاشمئزاز، ورغم أنه استطاع في وقت قصير أن يعلّمها أين تقف، وما عليها أن تتجنّب فعله، فقد أخفق في تعليمها مهمّاتها المختلفة في جرّ الزلّاجة، والحقّ أن تلك المهمّة لم تستهوِها على الإطلاق. كانت الكلاب الجديدة، في ما عدى الاثنين ذوي الأصول المجهولة، يسيطر عليها الذهول والانكسار، بسبب الطقس القاسي الغريب الذي وجدت نفسها فيه والمعاملة السيئة التي تعرّضت لها. أما هذان الكلبان فقد بدا وكأنهما قد تجاوزا ذلك إلى ما هو أسوأ منه، حتّى إنه لم يعد في جسمَيْهما ما هو قابل للكسر سوى العظام!

لم يبدُ المستقبل مشرقًا في ما يخصّ تلك الرحلة، فالقادمون الجدد غارقون في البؤس واليأس، والفريق القديم يشعر أفراده بالإجهاد الشديد بعد ألفين وخمسمائة ميل من السفر المُتوالي، ورغم ذلك كان الرجلان في غاية التفاؤل، بل كانا أيضًا يقومان بعملهما في فخر واعتزاز بزلّاجتهما التي يجرها أربعة عشر كلبًا. لقد شاهدا زلّاجات متعدّدة على طريق

مدينة «داوسون»، تخرج منها أو تدخل إليها، لكن أيًّا منها لم يجرّها هذا العدد الكبير من الكلاب. حقيقة الأمر هي أنه من المتعارف عليه في المنطقة القطبية ألّا يجرّ الزلّاجة أربعة عشر كلبًا، وذلك لسبب بسيط هو أن أي زلّاجة لا يمكنها أن تحمل الطعام الكافي لهذا العدد الكبير. لقد خطَّط الرجلان بالقلم والمسطرة لتلك الرحلة، وميرسيديس تتابع وتومئ بالموافقة؛ عدد كذا من الكلاب، تكلفة كل كلب كذا، هكذا بدت المسألة في غاية البساطة، كأنها مسألة حسابية انتهت بالجملة المعتادة «وهو المطلوب إثباته».

قاد باك في ساعة متأخّرة من صباح اليوم التالي فريقه الكبير على الطريق، وكان الأمر خاليًا من أي حيوية، بل من أي حياة؛ ومن دون ذرّة حماسة واحدة في داخل باك أو أحد من زملائه، الذين كانوا في غاية الإرهاق. لقد قطع باك المسافة بين «سولت ووتر» و«داوسون» أربع مرات من قبل، ونفسه الآن تمتلئ بالمرارة، وقد وجد نفسه يخطو على الطريق ذاته غارقًا في السأم والإجهاد. باختصار لم تكن عنده رغبة

بالعمل، وكذلك رفاقه جميعًا؛ الكلاب الجديدة كانت غارقةا في الخوف والتردّد، أما القديمة فقد افتقدت الثقة الكافية في أسيادها الجدد.

استقرّ في نفس باك شعور مبهم بأنه لا يصحّ أن يعتمد على هؤلاء الثلاثة الذين لا يجيدون أي شيء. ومع مرور الأيام اتّضح له أنهم أيضًا لا يتعلّمون. لقد اتصفوا بالإهمال في كل شيء، وافتقروا للنظام والانضباط، فكانوا يستغرقون جزءًا كبيرًا من الليل لإقامة مخيمٍ غارقٍ في الفوضى، ثم يضيع نصف النهار التالي في فكّ المخيّم وتحميل الزلّاجة استعدادًا للانطلاق. واتّسم ذلك التحميل في العادة بالقدر نفسه من الفوضى، مما يتسبّب في ضياع وقت طويل في التوقّف عن السير لإعادة ترتيب حِمل الزلّاجة. لذلك مرّت أيام لم يقطعوا في أيّ منها عشرة أميال، وثمة أيام أخرى لم ينجحوا في التحرّك بالزلّاجة على الإطلاق، وفي كل الأحوال لم يتمكّنوا من قطع أكثر من نصف المسافة التي قدَّرها الرجلان وهما يقرّران كمية الطعام الكافية لإطعام الكلاب أثناء الرحلة.

كان حتميًّا إذًا أن يحدث نقص في طعام الكلاب، لكنهما جعلا الأمر أسوأ عن طريق إطعام الكلاب أكثر من الكمية المعتادة، مما أدى إلى التعجيل ببدء الأزمة. اتّصفت الكلاب الأجنبية بالنهم الشديد، إذ لم تتعرّض من قبل لأزمات في الطعام، لذا لم تكن أجهزتها الهضمية مدرّبة على الاستفادة من الطعام لآخر قطرة، وبالإضافة إلى ذلك فإن هال عندما لاحظ الضعف المتزايد لكلاب «هاسكي» أثناء الجرّ رأى أن كمية الطعام المتعارف عليها غير كافية لها، فقرّر مضاعفة نصيبها من الطعام. وقد زاد الأمر سوءًا على سوء أن ميرسيديس الغبية اعتادت أن تسرق بضع سمكات من كيس الطعام، لتطعم الكلاب، بعد أن تفشل في التأثير على أخيها بعينيها الجميلتين المليئتين بالدموع وصوتها المتهدّج. لم يكن الطعام هو ما احتاجه باك وكلاب هاسكي، بل الراحة، ورغم أن الكلاب لم تُنجز كثيرًا بحساب الوقت فإن الحمل الثقيل الذي أُرغمت على جرّه استنزف كل قواها.

ثم بدأت مشكلة نقص الطعام. فوجئ هال ذات يوم أن نصف المخزون من غذاء الكلاب قد تبدّد، على حين لم يقطعوا من المسافة المطلوبة إلا رُبعها، وزاد على ذلك أنه قرّر عدم الحصول على أي كميات إضافية من الطعام، في مقابل المال أو حتى الإحسان. وكان من الطبيعي والحال كذلك أن يُقلّص نصيب الطعام المحدّد لكلّ كلب مع العمل على زيادة المسافة المقطوعة في كل يوم. أيدت أخته وزوجها قراره، غير أنهم كانوا جميعًا غارقين في الإحباط بسبب حملهم الثقيل من ناحية وعدم كفاءتهم من ناحية أخرى. كان بإمكانهم ببساطة أن يقدّموا للكلاب كمية أقل من الطعام، أما حَمْل الكلاب على الجرّ بسرعة أكبر فكان هو الأمر المستحيل، ويضاف إلى ذلك كلّه أن فشلهم في الانطلاق على الطريق في ساعة مبكرة، أدى إلى عدم إمكانية إطالة ساعات السفر. هم في الحقيقة لم يفشلوا فقط في توجيه الكلاب، وإنما فشلوا فشلًا ذريعًا أيضًا في تنظيم أنفسهم، وتوجيه بعضهم بعضًا.

كان الكلب داب هو أول من فارق الحياة. كان المسكين لصًّا يفتقد المهارة، فيُضبط ويُعاقب في معظم المرّات، ورغم ذلك فقد تميّز بالإخلاص في عمله. وقد تدهورت حالة كتفه الذي مزّقته الجراح من سيئ إلى أسوأ، بسبب حرمانه من الراحة وافتقاده للعلاج، وفي النهاية اضطُرّ هال إلى إطلاق النار عليه. ومن الأقوال المشهورة في المنطقة القطبية قولهم إن الكلب الأجنبي قد يموت جوعًا إذا تناول فقط الكمية التي يتناولها كلب «هاسكي»، لذا كان من المتوقّع أن ترحل تلك الكلاب الستة، وهي لا تأكل إلا نصف ما يكفي كلب من فصيلة «هاسكي»، فرحل كلب «نيوفاوندلاند» أولًا، ثم تبعته الثلاثة التي تُسمى «يوينتر» قصير الشعر، أما الاثنان ذوا الأصل المختلط، فقد تمسّكا بالحياة في إصرار وشجاعة، لكنهما رحلا في نهاية الأمر.

فَقَدَ السادة الثلاثة في تلك المرحلة كل ما لديهم من لطف ورقة أبناء الجنوب، بعد أن نُزع عن الرحلة إلى القطب الشمالي كل ما أحاط بها من سحر ورومانسية، وبات واضحًا لهم كم هي في واقعها رحلة قاسية

صعبة، تتحدّى كل إمكاناتهم البشرية رجالًا ونساءً. لقد توقّفت ميرسيديس عن البكاء حزنًا على الكلاب، إذ انشغلت بالبكاء حزنًا على نفسها، وبالعراك مع زوجها وأخيها. والحقيقة أن العراك هو الشيء الوحيد تقريبًا الذي لم يمنعهم الإنهاك من ممارسته طوال الوقت، فقد نبعت حدّة الطبع من شقائهم، وزادت بزيادته، وتضاعفت ثم تجاوزت كل الحدود. أما ذلك الصبر الرائع على مشاقّ الطريق الذي يعرفه الرجال الذين يكدحون ويعانون، ورغم ذلك لا يتخلّون عن تعاطف قلوبهم وحلاوة ألسنتهم، فلم يعرفوه، بل لم يعرفوا شيئًا عنه. لقد تصلّبت مشاعرهم، وسيطر عليهم الألم: آلمتهم عضلاتهم، وآلمتهم عظامهم، وتألّمت قلوبهم، ونتج عن ذلك كلّه حدّة في لسانهم، فصارت المشادات والكلمات الحادة هي أول ما يخرج من أفواههم في الصباح، وآخر ما ينطقون به قبل النوم في المساء!

تشارلز وهال اعتادا على الاستغراق في المجادلات، طالما أعطتهما ميرسيديس الفرصة. اعتقد كل منهما جازمًا بأنه يقوم بنصيب من الجهد

أكبر مما يقوم به الآخر، ولم يتوانَ كل منهما عن التعبير عن ذلك الاعتقاد في كل مناسبة، وكانت ميرسيديس في بعض الأحيان تنصر زوجها وفي أحيان أخرى تنصر أخاها. النتيجة في معظم الأحيان كانت مشاجرات عائلية مدهشة، لا تنتهي. يبدأ الأمر مثلًا بخلاف حول من يجب عليه أن يذهب لقطع بعض الأخشاب لإعداد النار، وهو خلافٌ عادةً يخصّ الرجلين فقط، فإذا ببقية أفراد العائلة يُجَرّون إلى داخل المعركة: الآباء، والأمّهات والخالات والعمّات وأبناؤهنّ، وكلّهم على بُعد آلاف الأميال، وبعضهم قد فارق الحياة. لا أحد يمكنه أن يفهم العلاقة بين جمع بعض الحطب للنار، وآراء هال في الفن، أو المسرحيات الاجتماعية التي يكتبها خاله، ورغم ذلك كثيرًا ما كانت المشاجرات تنحو إلى مناقشة هذا الأمر، كما يمكنها أن تنحرف إلى مناقشة تحيّزات تشارلز السياسية. أما علاقة تجهيز النار للتدفئة في منطقة نهر «يوكن» بأخت تشارلز التي اعتاد لسانها النميمة، فقد كان واضحًا فقط لمرسيديس التي قرّرت في ما يبدو إفراغ ما في جُعبتها - وهو كثير - من

آراء لها في هذا الموضوع، وفي موضوعات أخرى تتعلّق ببعض الصفات السيّئة التي تختصّ بها عائلة زوجها. نعم، كان الثلاثة ينشغلون بهذا النوع الغريب من المشاجرات عن إشعال النار وإعداد المخيّم وإطعام الكلاب!

اعتمل في قلب ميرسيديس إحساس بتعرّضها للظلم بصفتها أنثى. كانت جميلة ناعمة، معتادة على المعاملة الرقيقة في ما مضى من حياتها، غير أن معاملة أخيها وزوجها في تلك الأيام كانت أبعد ما تكون عن الرقّة. واعتادت في ما مضى أيضًا على الاعتماد على الآخرين، وأخذ الرجلان يشكوان من تلك الصفة في الظروف الحالية، على حين رأت هي أن الإتكالية هذه هي جزء أصيل من أنوثتها، وهكذا جعلت حياة الرجلين غير محتملة. لم تعد تهتم بالكلاب، ولأنها كانت متعبة بائسة فقد أصرّت على ركوب الزلّاجة بدلًا من المشي. كانت ميرسيديس جميلة ناعمة حقًّا، لكنها تزن مائة وعشرين رطلًا، فكانت تلك هي القشّة التي قصمت ظهر الكلاب التي تجرّ حملًا كبيرًا وهي تعاني شدّة الضعف

والجوع. لقد استقرّت على الزلّاجة لأيام، حتّى تخبّطت الكلاب في السيور وتوقّفت الزلّاجة. طلب منها تشارلز وهال أن تترجل، ثم لجأوا إلى التوسّل والاستعطاف، بينما هي تنشج بالبكاء، وتشكو إلى السماء قسوتهما عليها.

حملها الرجلان - ذات مرة - بالقوة، من فوق الزلّاجة، فجلست على الطريق وقد تخشّبت قوائمها كطفل مدلّل، وانطلقت الزلّاجة، على حين امتنعت هي عن أي حركة. وبعد أن قطعا بالزلّاجة ما يقرب من ثلاثة أميال، اضطُر الرجلان إلى تفريغ الزلّاجة والعودة إليها، ثم حملاها بالقوة إلى ظهر الزلّاجة مرة أخرى. وبطبيعة الحال لم تتكرّر تلك المحاولة أبدًا.

انشغل السادة الثلاثة القاسية قلوبهم بمعاناتهم عن معاناة الكلاب. وتلخّصت نظرية هال التي بدأ تطبيقها على الآخرين في أنه على المرء أن يكون صلبًا، وقد بدأ في تلقينها لأخته وزوجها، أما الكلاب فلم يكن من وسيلة لتعليمها سوى الضرب على رؤوسها بالهراوة. نفد طعام الكلاب

في منطقة «فايـ﵃ فينجرز»، واضطُر هال إلى قبول عرض امرأة عجوز من سكان المنطقة الأصليين، بإعطائها مسدسه – المعلّق بجوار سكين الصيد في حزامه – مقابل بضعة أرطال من جلد الجياد المُجَمَّد، الذي قام مربو الماشية بسلخه عن أجساد الجياد النافقة، منذ نحو ستة شهور. اتضح في ما بعد أن هذا الجلد المجمّد كان بديلًا في غاية السوء لطعام الكلاب المعتاد. لقد بدا في حالته المجمّدة أشبه بشرائح من الحديد المطلي بالزنك، وبعد أن جاهدت الكلاب لبلعه، تحوّل من حالة التجمّد فصار خيوطًا جلدية رفيعة غير مغذية، وانتهى به الأمر في أحشاء الكلاب على شكل كتلة متشابكة من الشعر القصير المزعج، غير القابل للهضم.

ظل باك، رغم كل شيء يشدّ الزلّاجة مترنّحًا في موقع القائد، وكأنه يعيش في كابوس. كان يداوم على الجرّ حتى تخور قواه، عندئذٍ يتوقّف ويظل في مكانه حتى تُضطره ضربات الهراوة أو لسعات السوط إلى الانبعاث واقفًا. لقد فقد فراءه الجميل قوامه وبريقه، وتدلّى الشعر

متهدّلًا رثًّا، كما صار متلبِّدًا مختلطًا بالدم المتجمّد في المواضع التي أصابها هال بهراوته أو سوطه. أما عضلاته فقد تضاءلت إلى أن صارت مجموعة من الخيوط المليئة بالعُقَد، كذلك اختفت طبقات اللحم فأصبح كل ما يضمّه هيكله العظمي من عضلات وعظام، واضحًا تحت جلده الفضفاض الذي تحول إلى طبقات متجعّدة، لا تضم إلا الفراغ. كان المشهد موجعًا للقلب حقًّا، أما قلب باك فلم يكن قابلًا للكسر. هكذا أثبتت تجربته مع الرجل ذي السترة الحمراء.

كان حال فريق الكلاب مثل حال قائدها باك، إذ أصبحت مجرّد ستة هياكل عظمية تترنح وراءه على الطريق. لقد بلغ بها البؤس كل مبلغ، حتى كادت تفقد شعورها بالألم تحت وقع ضربات الهراوة أو لسعات السوط. صار إحساسها بالألم خافتًا كأنما يأتي من أعماق سحيقة، غامضًا كالأشياء التي كانت تراها بعيونها أو الأصوات التي تسمعها في آذانها. لم تحظَ الكلاب بنصف حياة، لا، ولا رُبع حياة، بل لم تكن سوى جوالات يتكدّس في كل منها مجموعة من العظام وشرارة حياة ترف في

خفوت، فإذا توقّف الرَكب سقطت الكلاب متخبّطة في السيور وسكنت كالموتى، وخبت شرارة الحياة فيها حتى تكاد تنطفئ. ثم عندما تتساقط عليها الضربات أو اللسعات تعود تلك الشرارة خافتة واهنة، فتقف الكلاب وهي تترنح، ثم تنطلق وهي تكاد تتداعى على الطريق.

سقط الكلب الطيب بيلّلي في أحد الأيام على الطريق، ولم يستطع أن ينتصب واقفًا، ولأن هال قد اضطُر من قبل إلى التنازل عن مسدسه، فلم يكن أمامه سوى استخدام البلطة، التي هوى بها على رأس الكلب الممدّد على الأرض، ثم فك الجثة من السيور وجرّها إلى جانب الطريق. رأى باك والبقية ما حدث، وأدركوا أنه قد يحدث قريبًا لأيٍّ منهم. وفي اليوم التالي نفقت كوونا فلم يبقَ سوى خمسة كلاب: چو الذي ساءت حاله فلم يعد قادرًا على أي تخابث، ويايك الذي يجرّ قوائمه نصف واعٍ، ولم تعد سويعات الوعي القليلة التي تمرّ به كافية لأي تمارض، وسول – ليكس وحيد العين الذي لا يزال مخلصًا لعمله معتزًّا به، وفي الوقت نفسه يُمضّه الحزن لأنه لم يعد يملك إلا أقل القليل من

القوة المطلوبة لأدائه، وتيك الذي لم يسافر لمسافات طويلة ذلك الشتاء، وقد صار يتلقّى أكثر الضرب لأنه لا يزال قادرًا على المشاكسة، وأخيرًا باك. لا يزال باك هو قائد الفريق، غير أنه لم يعد يستطيع فرض النظام، بل لم يعد يحاول. إنه الآن يجرّ الزلّاجة وقد أعجزه الضعف نصف الوقت، حتى إنه يسير ولا يرى من الطريق إلا شبحًا غائمًا ممتدًّا أمامه، تدبّ عليه قوائمه في وهن.

أصبح الطقس ربيعيًا جميلًا، لكن أحدًا لم يلحظ ذلك، سواءً البشر أو الكلاب. صارت الشمس تشرق مبكرة وتتأخّر في الغروب، فالفجر يحل في الثالثة صباحًا وتظل حمرة الشمس حتى تغيب في التاسعة مساءً، وفي ما بين تلك اللحظتين يظلّ ضوء الشمس متوهّجًا طوال اليوم. لقد انسحب سكون الشتاء المسكون بالغيام تاركًا مكانه لهمسات الحياة التي تصحو من سباتها في الربيع. تتصاعد تلك الهمسات من أنحاء الأرض المفعمة ببهجة الحياة الجديدة، من الكائنات التي عاشت من قبل ثم غرقت في سكون كالموت طوال شهور الجليد الطويلة. ها هي

ذي عصارة الحياة تفور في أشجار الصنوبر، والبراعم الصغيرة تتفتّح في أشجار الصفصاف والحَوْر، أما الشجيرات الصغيرة الملتفّة ونصوب الكرْمة فقد اكتست برداء أخضر جديد. ومن ناحية أخرى بدأ غناء حشرات صرصار الليل يُسمع في ظلام الليالي، أما في ضوء النهار، فتُسمع خشخشة صادرة عن حركة الكائنات الأخرى التي تحبو وتزحف باحثة عن ضوء الشمس.

كانت طيور الحجل ونقار الخشب في أوجِّ نشاطها تطرق على أخشاب الأشجار، والسناجب تثرثر والطيور تغرّد، وفوق الرؤوس يشقّ الفضاء صفير الطيور البرية الآتية من الجنوب في جماعات متناسقة. ومن فوق منحدرات التلال يُسمع خرير المياه الجارية، وموسيقى نافورات مياه غير مرئية.

شرعت الطبيعة كلّها في خلع رداء الجليد، وأخذت عناصرها المختلفة تتمطّى وتتفجّر بالحياة. وها هو ذا نهر «يوكن» يجاهد ليتحرّر من الجليد الذي جثم عليه طوال الشتاء، والآن تأكله الشمس من أعلى،

في حين يتآكل الجليد نفسه من أسفل، وقد تعدّدت الحفر المملوءة بالهواء في قلب النهر، وكذلك ظهرت التشقّقات على سطح الجليد، وأخذت في الاتساع، كما ذابت قطع كبيرة من الجليد الأبيض الهشّ وسقطت في أعماق النهر. تقدّم الركب تحت الشمس المتوهّجة، وفي قلب نسائم الهواء الرقيقة، وبينما مظاهر الحياة تتفجر نابضة بالحيوية، كانوا جميعًا يترنّحون: الرجلان والمرأة وكلاب «هاسكي»، وكأنهم يعبرون إلى الموت.

وصل الركب إلى تقاطع نهر «يوكن» مع نهر «وايت»، وهناك دخلوا إلى مخيم السيد «چون ثورنتون»، وهم على حال في غاية البؤس؛ الكلاب قد تناقص عددها وميرسيديس جالسة على الزلّاجة تبكي، وهال يسب ويلعن بلا معنى، وعينا تشارلز تفيضان بدموع الأسى. وما إن توقّفت الكلاب حتى سقطت على الأرض ساكنة، كأنها جميعًا فقدت حياتها، وجفّفت ميرسيديس دموعها، واستقرّت عيناها على چون ثورنتون، وجلس تشارلز بشيء من الصعوبة على حجر كبير طلبًا لبعض

الراحة، إذ يعاني من تصلّب في مفاصله. تقدّم هال للحديث مع چون ثورنتون، الذي كان مشغولًا ببري قضيب من خشب البتولا ليكون مقبضًا لبلطته. استمع الرجل لكلام هال وهو يضع اللمسات الأخيرة في مقبض البلطة، وأعطى بعض الإجابات القصيرة عن الأسئلة التي وُجِّهت إليه. ولما طُلبت نصيحته، قدّمها مقتضبة، فمعرفته بالبشر جعلته يدرك أن هؤلاء الغرباء لن يتبعوها.

استمع هال إلى تحذير چون ثورنتون لهم من المجازفة بالسير على الجليد المشرف على الانهيار، ثم قال:

- «لقد أخبرونا في البداية أن قاع الطريق الجليدي يتساقط، وأن أفضل ما يمكننا عمله هو أن نتوقّف عن السير»، ثم أضاف بنبرة متهكّمة منتصرة: «قيل لنا إننا لن نستطيع الوصول إلى نهر وايت، وها نحن قد وصلنا».

فقال چون ثورنتون بلهجة مؤكَّدة:

- «ما قالوه لك هو الحقيقة، القاع الثلجي سيسقط في أي لحظة. نجاحكم في الوصول إلى هنا مجرّد ضربة حظٍّ، ومن الحمق الاستمرار، بناء على توقّع استمرار الحظ. وسأقولها لك واضحة صريحة: لو كنت مكانك، لما جازفت بحياتي على هذا الجليد المتآكل، ولو في مقابل ذهب آلاسكا كلّه».

فقال هال بسخرية للمرة الثانية:

- «ذلك لأنك لست من الحمقى، أليس كذلك؟». ثم أضاف مؤكّدًا:

«سنذهب في كلّ الأحوال إلى مدينة «داوسون». ثم فرد السوط وأطلقه في الهواء صائحًا: «هيا يا باك، هيا تحرّك».

انصرف ثورنتون إلى عمله، فهو يعلم أنه لا فائدة من محاولة صرف الأحمق عن حماقته، فالحماقة بلا شكّ قد أعيت من يداويها. على حين لن يتغيّر العالم كثيرًا إذا زاد الحمقى قليلًا أو حتى نقص منهم اثنان أو ثلاثة.

لم تُطِع الكلاب الأمر، فقد وصلت إلى المرحلة التي صار فيها الضرب ضروريًّا لتحريكها، هكذا أخذ السوط يصفّر هنا وهناك، ليقوم بمهمّته بلا رحمة، وثورنتون يرقبه وقد زمّ شفتيه. كان سول – ليكس أول من زحف واتخذ مكانه من الزلّاجة، ثم تبعه تيك. جاء بعد ذلك چو وهو ينبح في ألم، وأخيرًا اتّخذ يايك مكانه بعد عدة محاولات مؤلمة، إذ انقلب مرتين بعد أن قارب على الوقوف، ثم استوى واقفًا في المحاولة الثالثة. أما باك، فلم يحاول على الإطلاق أن يقف، بل رقد ساكنًا حيث سقط، وتتالى وابل من ضربات السوط عليه، لكنه لم ينتحب وأيضًا لم يقاوم. همَّ ثورنتون بالكلام أكثر من مرّة، ثم غيّر رأيه ولم ينطق، وإن تندّت عيناه بالدموع. ثم هبّ واقفًا مع تكرار قرقعة السوط، وظلّ يروح جيئة وذهابًا في تردّد.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يُخفِق فيها باك في النهوض إلى العمل، وبدا ذلك وحده سببًا كافيًا لإشعال غضب هال، الذي استبدل الهراوة بالسوط بعد أن فشل الأخير في إجبار باك على القيام. رفض باك

مرة أخرى النهوض رغم الضربات البالغة القسوة التي أخذت تتوالى عليه. نعم، كان باك - مثل زملائه - بالكاد يستطيع أن يقف على قوائمه الأربع، غير أنه اختلف عنهم في رفضه المتعمِّد للنهوض. لقد داهمه شعور غامض بخطر وشيك، وازداد ذلك الشعور قوة وهو يشد الزلّاجة في اتجاه ضفة النهر، ثم لم يغب عنه أبدًا. ماذا عن طبقة الجليد الرقيقة التي شعر بها طوال اليوم تحت قوائمه؟ لا بد أن ثمّة خطرًا ما ينتظره إذا تقدّم إلى حيث يريد صاحبه. ذلك كلّه جعله مصرًّا على الرفض، لقد عانى معاناة فظيعة حتى إن الضربات القاسية لم تعد تؤلمه كثيرًا، وبينما تتوالى تلك الضربات الآن، تتناقص بالتدريج جذوة الحياة بداخله حتى تكاد تخبو تمامًا. إنه الآن يشعر بخدر غريب ينتشر في جسمه، ويبدو الضرب وكأنه يأتي من مكان بعيد؛ نعم، هو مدرك أنه يُضرب، لكنه لا يشعر بالألم، فقط يسمع صوتًا خافتًا لوقع الضربات على جسمه، لكنه في ما يبدو لم يعد جسمه، بل شيء آخر غاية في البعد.

وفجأة، ومن دون أي إنذار، صدرت صرخة عالية غير مفهومة، كأنها صادرة عن حيوان، وانقض چون ثورنتون على هال المُمسك بالهراوة. انقذف هال إلى الخلف بقوة، وكأنما دفعته شجرة وهي تسقط، وارتفع صوت ميرسيديس صارخًا، في حين نظر تشارلز إلى المشهد حزينًا ومسح عينيه الكليلتين، لكنه لم يتحرّك بسبب معاناته من الألم في عضلاته.

وقف چون ثورنتون على رأس باك، يجاهد للتحكّم في نفسه، وقد تشنّج بالغضب حتى عجز عن الكلام، وبعد لحظات نجح في السيطرة على نفسه وقال بصوت مختنق:

- «إذا ضربت هذا الكلب مرة أخرى، فسوف أقتلك».

أجاب هال وهو ينتصب واقفًا:

- «هذا كلبي».

ثم أضاف وهو يمسح الدم عن شفتيه: «ابتعد عن طريقي، وإلا سأقضي عليك. نحن ذاهبون إلى داوسون».

وقف چون ثورنتون بين هال وباك، وأظهر بوضوح أنه لا ينوي التراجع، وفي الحال سحب هال سكين الصيد الطويلة من حزامه، فإذا بميرسيديس تصرخ ثم تبكي وتضحك بشكل هيستيري. أما چون ثورنتون، فقد وجّه ضربة خاطفة بمقبض بلطته ليد هال فأطار السكين إلى الأرض، ثم لاحقه بضربة أخرى عندما حاول الانحناء لاستعادتها، وانحنى بسرعة فالتقطها من على الأرض، وبضربتين سريعتين قطع چون ثورنتون سيور باك.

لم يجد هال في نفسه قدرة على المزيد من القتال، ويضاف إلى ذلك أن يديه، أو على الأصح ذراعيه، كانتا مشغولتين بأخته التي ارتمت عليه. وفوق هذا وذاك فإن باك قد صار قريبًا من الموت ولا أمل في قدرته على جرّ الزلّاجة. لذلك كلّه، لم تمض إلا بضع دقائق، حتى انطلق الركب مرة أخرى من ضفة النهر إلى سطحه المتجمد. سمع باك جلبة حركتهم فرفع رأسه ونظر إليهم، كان يايك في المقدّمة، وسول - ليكس ملاصقًا للزلّاجة، وبينهما كان چو وتيك. كانت الكلاب كلّها تتمايل وهي تجرّ

نفسها على الطريق. أما بالنسبة للسادة، فقد جلست ميرسيديس على الزلّاجة المُحمَّلة، وأمسك هال بالمقود، وكان تشارلز يتعثّر في المؤخّرة.

أخذ باك يراقبهم من بعيد، على حين ركع ثورنتون على ركبتيه بجواره، وأخذ يبحث بيدين خشنتين حنونتين عن أي عظام مكسورة. انتهى البحث وقد أسفر عن عدم وجود أي كسور، وإنما فقط بعض الكدمات، بالإضافة إلى حالة قاسية من سوء التغذية. عندئذٍ كانت الزلّاجة قد قطعت نحو ربع ميل، وأخذ باك وثورنتون يرقبانها وهي تزحف على الطريق. وفجأة، شاهدا الجزء الخلفي يميل إلى أسفل، وكأنه سقط في أخدود، وعمود المقود، وقد تعلّق به هال يطير في الهواء، واخترقت آذانهما صرخة ميرسيديس، أما تشارلز فقد رأته أعينهما يلتفت ويخطو خطوة واحدة في اتجاه العودة، ثم إذا بكتلة كبيرة من الجليد تنهار، ويختفي البشر والكلاب جميعًا. لم يعد أحد يرى شيئًا سوى حفرة كبيرة فاغرة فمها. لقد انهار الطريق.

تبادل چون ثورنتون وباك النظرات، ثم قال الرجل:

- «يا لك من شيطان مسكين»، أما باك فقد راح يلعق يد ثورنتون.

٦- في حبِّ هذا الرجل

عندما عانى چون ثورنتون من تجمّد قدميه في شهر ديسمبر الماضي، تركه شركاؤه ليحصل على قسط من الراحة، واستخدموا طوفًا من جذوع الأشجار ليحملهم عبر النهر إلى مدينة «داوسون». ولما التقى ثورنتون وباك كان الرجل لا يزال يعرج، لكن مع استمرار الجو الدافئ شُفي من ذلك العرج البسيط. أما باك فقد استعاد قوّته ببطء، وهو راقد بجانب ضفة النهر خلال أيام الربيع الطويلة، يرقب المياه المنسابة، ويستمع بكسل إلى أغاني الطيور وهمهمات الطبيعة.

ما أجمل الراحة بعد عناء السفر لمسافة ثلاثة آلاف ميل. لا شك أن باك أخذ يستردّ عافيته ووزنه بالتدريج، إذ شُفيت جروحه، وانتفخت عضلاته، واكتست عظامه باللحم من جديد. والحق أنهم جميعًا كانوا غارقين في الكسل مستمتعين بالتسكع - باك وچون ثورنتون وسكيت ونيج - في انتظار الطوف الذي سيحملهم جميعًا إلى داوسون. سكيت، هي كلبة من فصيلة «الساطر» الأيرلندي، صارت من أصدقاء باك، فقد

حاولت التقرّب إليه مع بداية قدومه إلى المعسكر، ولم تكن حالته القريبة من الموت تسمح له بعدم الاستجابة لمحاولاتها، كما كان تتميز برغبة بالرعاية مثل طبيب، مثلما هو الحال مع بعض الكلاب، كما تفعل القطّة لصغارها اعتادت سكيت أن تغسل جراح باك وتنظّفها. وهكذا في كل صباح، بعد أن يتناول باك إفطاره اعتادت سكيت أن تقوم بإجراء تلك المهمّات التطوّعية، حتى اعتاد عليها باك من ناحيته، وصار يتطلّع إلى ما تقدّمه له من مساعدة ورفقة، كما يتطلّع إليها من ثورنتون. أما الكلب نيج فكان ودودًا مثلها، لكنه أقل تحكّمًا، وهو كلب ضخم أسود اللون، هجين من فصيلتين هما «بلودهاوند» و«ديرهاوند»، ويتميّز بعينين ضاحكتين وطبيعة طيّبة بلا حدود.

وفوجئ باك بأن هذين الكلبين لم يُبديا تجاهه أي مظاهر غيرة، بل كانا يشبهان چون ثورنتون في عطفه وسعة صدره، وعلى حين أخذ باك يستردّ صحّته بالتدريج جذبه الكلبان إلى مشاركتهما الألعاب الساذجة التي كانا يمارسانها، ولم يتوقّف ثورنتون نفسه عن المشاركة فيها.

وهكذا مرّ باك مبتهجًا بمرحلة النقاهة، وعبرها إلى حياة جديدة. عرف باك في تلك الأيام نوعًا من الحب لم يُجرّبه من قبل، وهو شعور عميق، متّقد، لم يُجرِّب مثله من قبل. لم يعرف شيئًا من ذلك الشعور في بيت القاضي ميللر في وادي سانتا كلارا الذي تدفئه الشمس، فالخروج للصيد أو للنزهة مع أبناء القاضي كان أشبه بالشراكة في العمل، أما علاقته بأحفاد القاضي فهي في حقيقتها شكل من الحماية المرفّهة، أما علاقته بالقاضي نفسه، فهي صداقة رصينة جليلة. وذلك كلّه يختلف عن مشاعر الحب الحارّة الساخنة، التي تختلط بالافتتان والجنون التي لم يعرفها إلا على يديّ ثورنتون.

لقد أنقذ هذا الرجل حياته، وهذا شيء عظيم، لكن الأفضل من ذلك في عيني باك أنه السيد الأمثل. لقد اعتاد الآخرون أن يهتموا برعاية كلابهم من منطلق إحساسهم بالواجب، ومنفعة العمل، أما هو فيرعى الكلاب كأنها أطفاله، ببساطة لأنه لا يستطيع سوى ذلك. وأكثر من ذلك، لم يكن ثورنتون لينسى أبدًا أن يلقي تحية عطوفة أو كلمة مرحة، وأيضًا

أن يجلس ويثرثر معها، بحديث طويل، ولا تقل سعادته بها عن سعادتها. وكان من عادته أن يأخذ رأس باك بشيء من الخشونة بين يديه، ثم يمرّغ رأسه على رأس باك، وفي أحيان أخرى يتعمّد أن يهزّه إلى الأمام وإلى الخلف على حين يهمس في أذنه بشتائم، لكنها في أذني باك كلمات حب! لم يعرف باك سعادة أعظم من ذلك الحضن الخشن، والكلمات المهموسة، ومع كل هزّة إلى الأمام أو إلى الخلف يُخيَّل إليه أن قلبه سيقفز خارجًا من صدره في نشوة. وبعد أن يُطلق ثورنتون رأس باك، ينبعث الأخير واقفًا، بعينين معبّرتين وفم يضحك، وحلق تعتمل فيه أصوات غريبة، ويظلّ واقفًا بلا حراك لعدة دقائق، فينظر إليه چون ثورنتون، ثم يقول بتؤدة: «يا إلهي، إنك تكاد تتكلّم»!

أما باك، فكانت له طريقة غريبة، تكاد تكون مؤلمة، للتعبير عن الحب، إذ كان يلتقم كفّ ثورنتون في فمه، ويعضّه بقوة حتى إن أسنانه تترك آثارها على الكف لبعض الوقت، في ما بعد. وكما يفهم باك السباب

في إذنيه باعتباره كلمات حب، يفهم الرجل تلك العضة المُصطنعة باعتبارها ملاطفة مُحبّة.

وبشكل عام كان باك يعبّر عن مشاعره بأسلوب كأنه يعبد ثورنتون فهو يطير فرحًا عندما يلمسه أو يتحدّث إليه، غير أنه لم يكن يسعى إلى ذلك، ويتصرّف بخلاف الكلبين الآخرين. فالكلبة سكيت كان من عادتها أن تدسّ أنفها تحت كف سيدها وتوالي الدفع حتى يشرع ثورنتون في التربيت على رأسها. أما الكلب نيج، فكان يمد رقبته ثم يريح رأسه الضخم على ركبة ثورنتون. باك من ناحيته كان يكتفي بالجلوس ينظر متلهّفًا لمدة قد تصل إلى ساعة كاملة، تحت قدمَيّ سيده، يتطلّع إلى وجهه، حيث تستقر نظراته، ويتفرّس في ملامحه بالتفصيل، متتبّعًا بمنتهى الانتباه كلّ حركة مهما كانت بسيطة، وكل تعبير مهما كان عابرًا. كان باك في بعض الأحيان يجلس على مسافة أبعد بعض الشيء، خلف الخيمة أو على أحد جانبيها، فيأخذ في متابعة حركة ظلّ سيّده في أرجاء الخيمة، وقد يصل بهما توارد الخواطر إلى أن چون ثورنتون يحسّ بنظرات باك

المتمعّنة، فيلتفت إليه ويتبادلان النظرات العميقة، من دون كلام، وتلمع عيناهما بالمحبّة في وقت واحد.

وقد ظلّ باك لفترة طويلة بعد إنقاذه يحرص على ألّا يغيب صاحبه عن عينيه، وهو يتبعه كظلِّه منذ اللحظة التي يترك فيها الخيمة إلى اللحظة التي يعود فيه إليها. إن تبدُّل سادته منذ أتى إلى الشمال قد أوجد بداخله هاجسًا أن السيد يتغيردائمًا. كان باك يخشى أن يخرج چون ثورنتون من حياته كما خرج من قبل ييرو وفرانسوا والرجل الهجين ذو الأصل الإسكوتلندي. ولم يتركه هذا الهاجس حتى في الليل، فكان يطارده في أحلامه، حينئذٍ كان باك يطرد النوم من عينيه ويتسلّل وقد اقشعرّ جسمه من البرد، فيقف أمام فتحة الخيمة ويظلّ يستمع إلى صوت أنفاس سيده.

ورغم أن الحبَّ العميق الذي شعر به ناحية چون ثورنتون يدلّ على تأثير من الحياة المرفّهة التي عرفها من قبل، فقد ظلّت الطباع البدائيّة التي اشتعلت بداخله في رحلته إلى الشمال، حيّة نشيطة. نعم، كان باك مخلصًا لسيّده، متفانيًا في خدمته، وهي صفات اكتسبها من حياته

المتمدّنة، حيث هناك سقف يأويه ونار تدفئه، غير أنه احتفظ أيضًا بصفات الوحشية والمكر التي نبعت من طبيعته الأصلية. باختصار، يجب النظر إلى باك باعتباره حيوانًا ينتمي في أعماقه للحياة البرية، ثم قذفت به الظروف ليجلس في مخيم چون ثورنتون ويستدفئ بناره، وليس كائنًا نتج عن أجيال من الحياة المرفّهة في الجنوب طبعته بطابع التحضر.

منعه الحبّ إذًا من سرقة سيده، لكنه لم يتردّد للحظة واحدة في السرقة من الآخرين في أي مخيم آخر، وهيّأت له مهارته ألّا يُكتشف أمره أبدًا.

وتغطّي وجه باك وجسمه بعلامات أسنان كلاب أخرى، وقاتل هو من ناحيته بعنف كعادته وبدهاء أشدّ، لم يكن ليقاتل سكيت ونيج فطبيعتهما الطيبة لا تسمح بذلك، بالإضافة بالطبع إلى انتمائهما إلى چون ثورنتون. أما أي كلب آخر من الغرباء فهو - بصرف النظر عن فصيلته وقدراته في القتال - سرعان ما يعترف بتفوّق باك عليه، أو يجد

نفسه يدافع عن حياته في مواجهة خصم قوي. ولم تكن الرحمة من صفات باك في المواجهة، فلقد فهم جيِّدًا قانون الهراوة والناب، فلم يتنازل قط عن مكسب أو يتراجع في مواجهة خصم أوشك على القضاء عليه. لقد تعلّم من سبيتز ومن كلاب الشرطة والبريد أن ليس هناك خيار ثالث. يجب أن يكون هو السيد أو يقبل سيادة الآخر، أما إظهار الرحمة فهو غير مقبول في الحياة البدائية، لأنه يساء فهمه ويُعدّ ضعفًا، ويؤدّي بصاحبه إلى الموت. «اُقتل أو تُقتَل، التهم الآخر وإلا التهمك الآخرون»، هذا هو القانون وقد التزم باك بذلك القانون الذي انحدر إليه من الأزمنة البعيدة.

تجاوز العمر الحقيقي لباك عدد الأيام التي عاشها وعدد الأنفاس التي تردّدت في صدره، ففي داخله يرتبط الماضي بالحاضر، والبداية الساحقة البعد التي تمتد وراءه تنبض داخله بإيقاعٍ قويٍّ، فيستجيب لها مُتَبَدِّلًا من حال إلى حال، كما تتبدّل الفصول الأربعة، وتتبدّل حركة المياه بين مدٍّ وجزرٍ. ها هو ذا يجلس بجوار نار مخيم چون ثورنتون،

كلب عريض الصدر، ذو أنياب بيضاء، وفراء طويل، وبداخله تسكن أطياف أنماط الكلاب كلّها: أنصاف الذئاب والذئاب الوحشية، تتذوّق اللحم الذي يطعمه، وترتوي بالماء الذي يشربه، وتتشمّم الريح التي يشمّها، وتخبره عن أصوات الحياة البرية في الغابة، كما تستمع إليها معه. وهي بإلحاح لا يفتر تملي عليه طباعه وتوجّه أفعاله، وترقد بجواره حين يرقد للنوم، وتشاركه أحلامه، بل تكون أيضًا مادة لها.

استسلم باك لغواية تلك الأطياف، حتى صار في كل يوم يفقد جزءًا من متطلّبات الحياة في مجتمع البشر الذي يعيش فيه. وهناك من أعماق البراري يستدرجه نداء قوي مليء بالغموض والإثارة، فيشعر بأن عليه أن يعطي ظهره للنار ولتلك الحياة المألوفة وأن ينطلق إلى الغابة. وهو دائمًا لا يعرف أين ولماذا، وأبدًا لا يتساءل أين ولماذا يأتيه النداء القوي المسيطر من الغابة. وكلما استسلم لذلك النداء وشرع في الولوج إلى تلك الأرض الغامضة غير المطروقة، وبدأت الظلال الخضراء تظهر أمامه، أعاده حب چون ثورنتون إلى جوار النار من جديد.

چـون ثورنتون فقط هو الذي حاز اهتمامه، أما غيره من البشر فكانوا لا شيء. المسافرون العابرون قد يمتدحونه أو يربّتون على رأسه، فيتلقّى ذلك كلّه ببرود تام، أما إذا ألحّ أحدهم في إبداء اهتمامه، فإنه ببساطة ينتصب على قوائمه وينصرف من المكان. وعندما عاد هانز ويـيت شريكا چـون ثورنتون، على الطوف الذي طال انتظاره، رفض باك أن يُعيرهما أي اهتمام إلى أن أدرك أنهما من المقرّبين إلى چـون ثورنتون، عندئذٍ بدأ يتقبّلهما بشكل فاتر يتّسم بكثير من السلبية، فكان يقبل اهتمامهما كأنه المتفضّل عليهما. اتّصف الرجلان بالطبع نفسه الذي تميز به چـون ثورنتون، فهما كريما النفس، متواضعان، لا يميلان إلى التعقيد في تفكيرهما، لكنهما في النهاية يريان ما يحصل بوضوح. لذلك، عندما وصل الطوف إلى مدينة «داوسون»، بالتحديد عند الدوامة الكبيرة بالقرب من منشر الخشب، بات الرجلان مدركين أنهما لا يمكنهما أن يحظيا من باك بمودة مثل تلك التي يمنحها الكلبان سكيت ونيج.

أما الحبّ الذي يحمله باك لثورنتون فقد ظلّ يزداد ويزداد يومًا بعد يوم، حتى صار الرجل الوحيد الذي يمكنه أن يضع حمولة على ظهره أثناء السفر صيفًا، والحقيقة أن باك لم يكن ليرفض أي أوامر ما دامت صادرة عن ثورنتون. وفي أحد الأيام، وكان چون ثورنتون ورفاقه قد باعوا الطوف وغادروا «داوسون» في طريقهم إلى منابع النهر في مدينة «تانانا»، وبينما هم جالسون على قمة جرف يطلّ على هاوية صخرية القاع تصل إلى عمق ثلاثمائة قدم، وثورنتون في موضع قريب من الحافة وباك مستند على كتفه، وإذا بالرجل يستسلم لفكرة مفاجئة طرأت عليه، فيشير إلى صديقيه منبّهًا إياهما إلى التجربة التي يود أن يقوم بها، ثم يصيح في باك، مشيرًا بذراعه في اتجاه الهاوية: «هيا يا باك، اقفز». في اللحظة التالية كان چون ثورنتون يتصدّى لباك ويشتبك به عند حافة الجرف ليمنعه من القفز، بينما هانز وبيت يجرّانهما معًا إلى منطقة الأمان، بعيدًا عن الحافة.

كان بيت هو أول من تكلّم بعد أن عادوا جميعًا إلى أماكنهم واستردّوا أنفاسهم، فقال:

- «ما أغرب هذا!».

فهزّ ثورنتون رأسه وقال:

- «لا، بل هو شيء رائع. ولكنه مُريع أيضًا، إنه يخيفني أحيانًا».

أومأ بيت برأسه ناحية باك، وأعلن بلهجة مؤكّدة:

- «لا أتمنّى أن أكون الرجل الذي يفكّر في الاقتراب منك في وجود هذا الكلب».

وقال هانز مؤيّدًا:

- «وأنا أيضًا، بكل تأكيد».

وتحقّقت هواجس بيت في مدينة «سيركل» قبل نهاية العام.

كان بلاك بورتون، وهو رجل ماكر سيئ الخلق يفتعل مشاجرة مع أحد الوافدين الجدد في الحانة، عندما تدخل چون ثورنتون بحسن نية

للإصلاح بينهما، على حين كان باك جالسًا في أحد الأركان، وقد أسند رأسه على قائمتيه الأماميتين، وانشغل كعادته بمراقبة كل حركة من حركات سيده. وفجأة، وجّه بورتون ضربة غير متوقعة من كتفه إلى چون ثورنتون، الذي فقد توازنه وكاد يسقط على الأرض لولا أنه تشبّث بسطح البار.

سمع الرجال في الحانة صوتًا ليس هو بالنباح ولا بالعواء، إنما هو أقرب إلى الزئير، ثم رأوا جسم باك يطير في الهواء في اتجاه عنق بورتون. نجح الرجل في إنقاذ حياته عندما ألقى ذراعيه بحركة غريزية أمام وجهه، لكنه سقط على ظهره على الأرض، على حين جثم باك فوقه. أطلق باك ذراع الرجل من بين أسنانه، وحاول مرة أخرى الوصول إلى عنقه، وفي هذه المرة لم ينجح بورتون في حماية نفسه إلا جزئيًا، وتمكّن باك من نهش عنقه. عندئذٍ اجتمع الجميع فوق باك، فأمسكوا به واقتادوه بعيدًا عن الرجل، وبينما انهمك الطبيب في فحص جراح بورتون، أخذ باك يزمجر بشراسة وهو يتواثب محاولًا النفاذ إلى ضحيته من دون جدوى،

إذ منعته من ذلك مجموعة من الهراوات المترصّدة. انعقدت المحكمة المؤقتة الموكلة بنظر المنازعات في منطقة المناجم، وقرر أعضاؤها أن باك قد تعرّض لاستفزاز يبرّر فعلته. وهكذا أُطلِق سراحه، وبدأت شهرته منذ ذلك اليوم إذ أصبح اسمه معروفًا في كل مخيّمات آلاسكا.

بعد ذلك الحادث، وفي فصل الخريف، أنقذ باك حياة چون ثورنتون، لكن بطريقة مختلفة تمامًا. كان الشركاء الثلاثة يقومون ببعض إصلاحات في قارب خشبي طويل ضيق ذي مجداف، في منطقة شديدة الانحدار من خليج «فورتي مايل». أخذ هانز وبيت يتحرّكان على الضفة وهما يتحكّمان في حركة القارب عن طريق حبل رفيع فيليبيني الصنع، يربطانه من شجرة إلى أخرى، بينما ظلّ ثورنتون في القارب يساعد في انسيابه على الماء باستخدام مجداف طويل، ويصيح بالتوجيهات لشريكيه. أما باك، فكان على الضفّة يتحرّك بموازاة القارب مترقّبًا قلقًا، وعيناه لا تتحوّلان عن سيده.

وفجأة اعترض القارب نتوء مُكَوَّن من عدد من الصخور التي لا يكاد الماء يغطيها، فأرخى هانز الحبل بعض الشيء، على حين استخدم ثورنتون المجداف ليعبر ذلك النتوء الخطر، وقد نجح في ذلك بالفعل، فاندفع القارب بسرعة مع تيار الماء. عندئذٍ أعاد هانز شدّ الحبل بغرض التحكّم في القارب، ويبدو أن الشدّ كان مفاجئًا فاصطدم القارب بالضفّة ثم انقلب، أما ثورنتون فقد انقذف في قلب تيار الماء المتّجه إلى أسوأ منطقة في ذلك المنحدر، المنطقة التي لم يسبق لسابح أن نجا منها.

بلحظة اندفع باك إلى وسط الماء، وفي القلب من دوامة مياه خطيرة على بعد ثلاثمائة ياردة لحق بثورنتون، ولما أحسّ به متعلّقًا بذيله انطلق يسبح بكل قوته تجاه الشاطئ، لكن تيار الماء المتّجه إلى الشاطئ كان بطيئًا، بعكس التيار المندفع بقوة هائلة إلى أسفل. ومن بعيد، من قاع المنحدر انبعث هدير الماء الذي أخذ يزداد ضراوة حتى صار كالزئير المنذر بالهلاك، خصوصًا وقد تحوّل تيار الماء بفعل الصخور التي اعترضته إلى وابل من الماء المندفع بين الصخور الناتئة التي بدت أشبه

بأسنان مشط هائل الحجم. كان اندفاع الماء يتم بشكل مخيف من أعلى المنحدر، وأدرك ثورنتون أن الوصول إلى الضفة مستحيل، لذا حاول أن يتعلّق بواحدة من الصخور، وفي المحاولة الأولى احتك بها بشدة ولم يستقر عليها، وفي الصخرة الثانية أصيب ببعض الكدمات، أما الثالثة فقد اصطدم بها بقوة، ثم تعلّق بقمتها الزلقة بكلتا يديه، وأطلق باك، ثم صرخ فيه بصوت عالٍ يغطي على هدير الماء:

- «اِذهب يا باك، اِذهب».

وجد باك صعوبة في السباحة عكس التيار، وإذا بالتيار يجرفه إلى أسفل وهو يحاول المقاومة من دون جدوى، غير أنه لما سمع صوت ثورنتون يلقي إليه أمرًا بالذهاب مرتين تمالك نفسه وفرد جسمه رافعًا رأسه بعض الشيء فوق الماء، ثم ألقى نظرة على سيده، كأنها نظرة الوداع، بعد ذلك أطاع الأمر وانطلق يسبح بأقصى طاقته في اتجاه الضفة، حتى اقترب منها بما يكفي ليسحبه بيت وهانز إلى الشاطئ عند النقطة الأخيرة التي بدت فيها السباحة مستحيلة وبعدها ليس إلا الهلاك.

لم يغب عنهم جميعًا أن قدرة أي شخص على التعلّق بصخرة زلقة في مواجهة ذلك التيار لن تتجاوز دقائق قليلة، لذلك انطلقوا يركضون على الضفة متجهين إلى نقطة أعلى بكثير من موقع ثورنتون، ثم ربطوا الحبل الذي سبق لهم استخدامه في ربط القارب في رقبة باك وصدره، حريصين على ألّا يؤدي إلى خنقه ولا يعرقله في السباحة، ثم ألقوا به إلى الماء. ضرب باك في الماء بقوة وشجاعة، لكنه لم يكن في القلب من تيار الماء، ولم يكتشف الخطأ إلا عندما وصل على بعد بضع ضربات بمحاذاة ثورنتون، لكنه لم يستطع له شيئًا إذ مر بجواره ثم حمله التيار بعيدًا.

قام هانز في الحال بشدّ الحبل وكأن باك هو القارب، فضاق الحبل على جسم باك، وهو في قلب التيار، فإذا به ينقلب تحت سطح الماء، ويظلّ هناك حتى اصطدم جسمه بالضفة، وسحبه الرجلان خارج الماء. كان باك قد أشرف على الغرق، فرمى كل من هانز وبيت نفسه عليه، وأخذا يعملان على إخراج الماء من جوفه وإدخال الهواء اللازم

للتنفس، فترنح باك واقفًا ثم سقط مرة أخرى. عندئذٍ جاء صوت ثورنتون بصوت غير مسموع من بعيد، ورغم أن الكلمات كانت مبهمة، فقد كان واضحًا للجميع أن الصوت لرجل قد بلغ به اليأس كل مبلغ. أما باك فقد بدا له ذلك الصوت بمثابة صدمة كهربائية، فانبعث واقفًا على قدميه، ثم انطلق يجري سابقًا الرجلين إلى النقطة نفسها التي أقلع منها في المرة السابقة.

رُبط الحبل للمرة الثانية حول جسم باك، وقذف هو نفسه في الماء، ولكن في قلب التيار هذه المرّة. لقد أساء التقدير في المرة الأولى ولن يسمح لنفسه بارتكاب الخطأ ذاته مرة أخرى. أخذ هانز يرخي الحبل شيئًا فشيئًا، من دون أن يسمح بأي تهدل، على حين حرص بيت على تحريره من أي عُقد أو التواءات. ظل باك ساكنًا حتى وجد نفسه في وضع مناسب، فتوجّه ناحية ثورنتون كأنه قطار سريع، وتيار الماء يدفعه من الخلف، فلما وصل إلى ثورنتون ككبش ضخم، تشبث الرجل به، محيطًا عنقه الأشعث الشعر بذراعيه. قام هانز بربط الحبل إلى شجرة، فاهتز باك

وسيده وانقلبا في الماء، وظلا يتقلّبان في الماء ويتبادلان موقعيهما ما بين أعلى وأسفل، ويكادان يختنقان تحت وطأة اندفاع الماء الذي يلقيهما إلى القاع حيث يُسحل جسداهما على القاع الخشن المسنن، ثم يصعدان إلى أعلى حيث يصطدمان بالصخور وببقايا أغصان الأشجار، إلى أن أخذا طريقهما متّجهَيْن إلى الضفة.

استقر ثورنتون على الضفة، مستلقيًا على بطنه، متألما بسبب استخدام شريكيه لقطع من الأخشاب الطافية لدفعه إلى الضفة. فتح عينيه ثم بحث بهما مباشرة عن باك، الذي كان مستلقيًا أيضًا بلا حراك، ولا أثر للحياة، على حين وقف زميلاه على رأسه، فأخذت سكيت تلعق وجهه المبلل وعينيه المغلقتين، وشرع نيج في العواء. قام ثورنتون الذي كان يعاني من الكدمات والرضوض، بفحص دقيق لجسم باك، الذي حمله هانز وبيت إلى جواره فوجد ثلاثة ضلوع مكسورة، مما جعله يصيح معلنًا:

– «سوف ننصب مُخيَّمنا هنا». وقد قاموا بذلك بالفعل، وظلوا هناك حتى التأمت الكسور، وأصبح باك قادرًا على السفر من جديد.

وفي شتاء ذلك العام، في مدينة «داوسون»، قام باك بإنجاز آخر، لعله لا يُعد بطوليًّا مثل سابقه، لكنه رفع اسم باك إلى درجات أعلى وأعلى في تاريخ آلاسكا، الذي اعتاد السكان الأصليون تسجيله على أعمدة خشبية تراثية تُسمى بالأعمدة المقدّسة. كان ذلك العمل داعيًا لامتنان الرجال الثلاثة، إذا أمدّتهم بالمال الذي كانوا في حاجة إليه للتجهيز لرحلتهم التي طالما حلموا بها إلى الشرق البكر، حيث المناجم التي لم تُكتشف بعد. بدأ الأمر بمحادثة في حانة إلدورادو، التي اعتاد الرجال الاجتماع فيها والتباهي بكلابهم المفضّلة. في ذلك اليوم، تركّز الحديث حول الهجوم على باك لما تبادله الرجال عنه من حكايات، ووجد ثورنتون نفسه مدفوعًا بقوّة للدفاع عنه. امتدّ الحديث لما يقرب من نصف ساعة، وفي نهايته أعلن أحد الحاضرين أن كلبه يستطيع تحريك زلّاجة تحمل خمسمائة رطل وجرّها، فإذا بآخر يتباهى بأن كلبه يستطيع جرّ ستمائة

رطل، وأضاف ثالث أن كلبه يمكنه أن يجر سبعمائة رطل، وإذا بـچـون ثورنتون يقول بلهجة مستخفّة:

- «إن باك يمكنه أن يُحرَّك زلّاجة تحمل ألف رطل».

عندئذٍ وقف ماثيوسون، وهو أحد الذين حصلوا على ثروة من منجم الذهب في خليج «بونانزا»، وهو نفسه الرجل الذي راهن على سبعمائة رطل، وقال متسائلًا:

- «وهل يستطيع أن يحرّكها من وضع السكون التام، ويجرّها لمسافة مائة ياردة؟».

أجاب ثورنتون مؤكِّدًا بهدوء:

- «يستطيع أن يحرّكها من وضع السكون التام، ويجرّها لمسافة مائة ياردة».

- «حسنًا». هكذا قال ماثيوسون، ثم أضاف ببطء متعمّدًا أن يُسمِع الجميع:

«ها هي ألف دولار مني تقول إنه لا يستطيع». وبينما يقول ذلك، ألقى الرجل على طاولة الحانة كيسًا في حجم قطعة من نقانق بولونيا ممتلئًا بغبار الذهب.

لم يتكلّم أحد. ها هو ذا ثورنتون مطالب بإثبات ادعائه، ولكن هل هو مجرّد ادعاء؟ إنه يشعر في تلك اللحظة بفورة دماء ساخنة تزحف على وجهه، لقد أضلّه لسانه. وكيف له أن يعرف أن باك يمكنه أن يجر ألف رطل، أي نصف طن! إن مجرد التفكير في ضخامة تلك الكمّيّة يصيبه بالهلع. صحيح أن ثقته في قدرات باك عظيمة، وقد اعتقد في مناسبات سابقة أنه يستطيع تحريك مثل تلك الحمولة، لكن لم يسبق له أبدًا أن جرّب مثل هذا الاحتمال، وترقبه الآن عيون ما يزيد على عشرة رجال، ينتظرون ردّه وقد لفَّهم الصمت. والأهم من ذلك كلّه هو أنه لا يملك ألف دولار، وكذلك صديقاه هانز وبيت.

ومضى ماثيوسون يقول:

- «معي أمام باب الحانة زلّاجة تحمل عشرين كيسًا من الدقيق يزن كل منها خمسين رطلًا»، ثم أضاف بصراحة قاسية: «فلا تجعل ذلك الأمر يمنعنا من المضي قدمًا».

لم يرد ثورنتون على كلمات الرجل، فهو لا يعرف ماذا عليه أن يقول. ثم أخذ يتطلّع إلى الوجوه المحيطة به واحدًا واحدًا بذهول رجل فَقَدَ القدرة على التفكير، ويبحث في مكان ما عما يمكن أن يُعيد إليه تلك القدرة. لفت نظره في تلك اللحظة وجه مألوف يتطلّع إليه، إنه چيم أوبريان، صديق قديم، وأحد أثرياء منجم خليج «ماستودون»، وكأنما كانت تلك هي الإشارة التي شجّعته على فعل ما لم يكن ليحلم بفعله، وإذا به يسأل صديقه القديم، في ما يشبه الهمس:

- «هل يمكنك أن تقرضني ألف دولار؟».

- «بالطبع». هكذا أجاب أوبريان، وهو يلقي بكيس منتفخ بجوار كيس ماثيوسون. ثم أضاف:

«رغم أنني لا أظنّ أن ذلك الكلب الشرس يمكنه القيام بذلك العمل».

ترك رواد حانة إلدورادو موائدهم وخرجوا إلى الشارع، وجاء آخرون من مُرَبِّي الكلاب والسماسرة للمشاركة في المراهنة، ومتابعتها. هكذا اصطف عدة مئات من الرجال بملابس من الفراء وقفازات ثقيلة، على بعد مناسب من جانبي زلّاجة ماثيوسون، المحمّلة بألف رطل من الدقيق، وقد التصق نعلاها بالجليد المتراكم على الأرض، بعد أن استقرت في مكانها لما يقرب من ساعتين في ذلك الجو البارد الذي بلغ ستين درجة تحت الصفر. يبدو أن معظم الواقفين لم يتوقّعوا النجاح لباك، فقد توقّع ثلثاهم أن باك لن يتمكّن من تحريك الزلّاجة. وقد تجادل المشاركون في تفسير عبارة «تحريك الزلّاجة المتوقّفة»، فقبل أوبريان أن يُعطى ثورنتون الفرصة ليحرّر الزلّاجة من الجليد الذي التصقت به، على حين أصر ماثيوسون على أن العبارة المذكورة تتضمّن أن يقوم باك بتحرير الزلّاجة من الجليد، وكذلك رأى معظم الذين شهدوا الاتفاق

داخل الحانة. وعندئذٍ تغيّرت توقعات المشاركين لتصبح بنسبة ثلاثة إلى واحد في غير صالح باك.

لم يجازف أحد من الواقفين بالمراهنة لصالح باك، فلم يصدق أيٌّ منهم أن بإمكانه إتمام المهمّة. لقد اندفع ثورنتون في قبول الرهان، والشك يعتمل في صدره، أما الآن وهو ينظر إلى الزلّاجة، أي الحقيقة الماثلة أمامه، وأمامها عشرة من كلاب الجرّ مستلقية على الجليد، وهو العدد المعتاد لجرّ الزلّاجات، تبدو المهمة في عينيه أكثر استحالة من ذي قبل.

وقف ماثيوسون مُنتَشيًا تغمره الثقة، وإذا به يصيح معلنًا:

- «ثلاثة إلى واحد». ثم أضاف:

«سأضع ألفًا إضافية عند هذا الرقم يا ثورنتون. ما رأيك؟».

تجلّت الشكوك واضحة على وجه ثورنتون، غير أن الموقف استثار روحه القتالية، الروح التي تُحّلِّق فوق توقعات العقل، وترفض أن تستسلم للمستحيل، ولا تسمح لأي أصوات أن تخترقها سوى ضجيج

المعركة. اجتمع ثورنتون بزميليه هانز ويت، فوجد جيوبهما شبه خاوية، ولم يستطع الثلاثة توفير أكثر من مائتي دولار، كانت في تلك الظروف السيئة هي كل ما يملكون، ورغم ذلك وضعوه من دون تردّد على المائدة في مقابل الدولارات الستمائة التي وضعها ماثيوسون.

قام أحدهم بفك فريق الكلاب الذي كان يجرّ الزلّاجة، ووضع باك مكانها، باستخدام السيور الخاصّة به. وانتقلت إلى باك عدوى الحماسة التي غمرت چون ثورنتون، وسيطر عليه شعور بضرورة أن يقدّم شيئًا عظيمًا لسيده. بدأت صيحات الإعجاب بمنظره الرائع تتصاعد، وقد كان حقًّا في حالة ممتازة، من دون أي أوقية من اللحم الزائد، أما المائة والخمسون رطلًا التي يزنها فهي كتلة متماسكة من العزم والنشاط. ذلك بالإضافة إلى فرائه الذي بدا لامعًا كالحرير المتموّج، أما الشعر حول رقبته وعبر كتفيه فهو هالة من النعومة أخذت تنتفش شيئًا فشيئًا مع كل حركة من حركاته، وكأن الحيوية انسابت في جسمه فجعلت كل شعرة تنبض بالحياة والنشاط. وقف بصدره العريض وقائمتيه الأماميتين

الثقيلتين في حجم متناسب مع بقية جسمه، الذي كانت عضلاته القوية تتكوّر تحت جلده. ولقد تحسّسها بعض الرجال وأعلنوا أنها في قوة الحديد، فانخفضت نسبة الرهان لتصبح اثنين إلى واحد.

وفجأة صاح أحد الحاضرين، وهو من أثرياء منطقة المناجم في «سكوكام بينشز»:

- «رائع يا سيدي، إنه رائع». ثم أضاف متعجِّلًا:

«أنا أعرض عليك يا سيدي ثمانمائة دولار ثمنًا له، الآن وقبل هذا الاختبار، ثمانمائة على الحالة التي هو فيها في هذه اللحظة».

هزّ چون ثورنتون رأسه رافضًا العرض، ثم خطا إلى جوار باك. فصاح ماثيوسون معترضًا:

- «يجب أن تبتعد عنه، لتعطيه مساحة كافية، وكذلك التزامًا بالاتفاق».

خيّم الصّمت على المكان، حيث لم يعد يُسمع سوى أصوات بعض المراهنين وهم يؤكّدون بثقة، في غير موضعها، على نسبة اثنين إلى واحد. لقد أقر الحاضرون جميعًا في أنفسهم بأن باك كلب رائع، لكن عشرين كيسًا من الدقيق يزن كلٌّ منها خمسين رطلًا، أي ألف رطل من الدقيق هي بالتأكيد حمولة أثقل من أن تقنعهم بحلّ أكياس نقودهم، ودفع المزيد.

جثا ثورنتون على ركبتيه بجوار باك، وأخذ رأسه بين يديه، ثم أراح رأسه بحيث تجاور خداهما. لم يهزّه ملاعبًا كما هي عادته، ولم يهمس في أذنه بعبارات سباب مداعبًا، لكنه همس في أذنه قائلًا: «بحقّ محبتك لي يا باك، بحقّ محبّتك لي». عندئذٍ، أصدر باك أنينًا خافتًا ينمّ عن توق مكتوم.

وقف الرجال يراقبون في فضول، فالأمر يشتد غموضًا، وقد بدا المشهد وكأنه طقوس سحرية، إذ انتصب ثورنتون واقفًا، على حين أخذ باك يده المغطاة بالقفاز بين فكيه، وضغط عليها بأسنانه ثم أطلقها ببطء،

وكأنما على مضض. كانت هذه إجابته، ليس بالكلمات، ولكن بالتعبير الصادق عن الحب. عندئذٍ، تراجع ثورنتون عدة خطوات مبتعدًا، ثم قال:

- «الآن يا باك».

شد باك السيور المربوطة إليه، ثم أرخاها لبضع بوصات، بحسب الطريقة التي تعلّمها.

ثم دوى صوت ثورنتون عاليًا حادًّا في الصمت المُطبق:

«هيا إلى اليمين».

شدّ باك السيور المرتخية منعطفًا ناحية اليمين، بشيء من الاندفاع ثم توقّف فجأة مثَبِّتًا المائة والخمسين رطلًا التي يزنها جسمه، مما جعل حمل الزلّاجة يهتزّ، على حين صدر من أسفلها صوت طقطقة خفيفة.

ثم صدر أمر جديد من ثورنتون:

- «إلى اليسار».

أعاد باك المناورة نفسها من ناحية اليسار، فتحوّل صوت الطقطقة إلى صوت تهشُّم، وتقلقلت الزلّاجة في مكانها، وانزلق نعلاها فاحتكّا بالجليد وكشطا سطحه لبضع بوصات. وهكذا تحرّرت الزلّاجة من الجليد. عندئذٍ حبس الواقفون أنفاسهم من دون وعي.

ثم جاء الأمر من ثورنتون كطلقة الرصاص:

- «والآن، هيا إلى الأمام».

شدّ باك السيور بحدّة وهو يقذف إلى الأمام جسمه الذي بدا وكأنه كتلة واحدة متماسكة تبذل أقصى ما فيها من جهد، وقد أخذت عضلاته تتقلّص وتنبسط كأنها كائنات حيّة تجري تحت فرائه الحريري، أما رأسه فهو يتطلّع إلى الأمام ناظرًا إلى أسفل، وهو يشدّ صدره العريض الذي يكاد يلامس الأرض، وقوائمه الثقيلة تدبّ على الأرض بقوّة مجنونة، فتخدش مخالبه الجليد السميك في خطوط عميقة متوازية. اهتزت الزلّاجة ثم تأرجحت ذات اليمين وذات الشمال، فتحرّكت حركة طفيفة إلى الأمام. وفجأة، انزلقت إحدى قوائم باك، فتأوّه واحد من الحاضرين

بصوت عالٍ، ثم عادت الزلّاجة تميل إلى الأمام فيما بدا أنه عدّة هزّات سريعة متتابعة، تدفعها إلى الأمام مسافة بسيطة: نصف بوصة، ثم بوصة كاملة، وبوصتين، من دون أن تعود إلى وضع السكون مرة أخرى. أخذت الهزّات تتناقص بشكل ملحوظ، مع تزايد قوة الدفع التي اكتسبتها الزلّاجة، وتمكّن باك من السيطرة على تلك الهزّات، ثم السير بالزلّاجة قدمًا في ثبات.

أخذ الرجال يلهثون، وبدأوا يستعيدون أنفاسهم، غير مدركين أنهم توقّفوا عن التنفس للحظات. كان ثورنتون يجري خلف باك مشجِّعًا إياه ببعض عبارات مرحة قصيرة. وبدأت أصوات هتافات تعلو مع اقتراب باك من نقطة نهاية السباق التي تم تحديدها قبل بداية الرهان. أما عند وصوله لحزمة الخشب التي وضعت في نهاية المائة ياردة، ثم توقّفه بناءً على أمر من سيّده، فقد تحوّل الهتاف إلى ما يشبه الزئير. انفجر الرجال جميعًا في التهليل حتى البكاء بلا حرج، بمن فيهم ماثيوسون، وأخذوا يصافحون بعضهم بعضًا، من يعرفون ومن لا يعرفون، وقُذِفت القبّعات

والقفازات في الهواء، وانغمس الجميع في صخب فوضوي تغمره البهجة.

جثا ثورنتون على ركبتيه بجوار باك، وتلاصقت رأساهما، ثم أخذ ثورنتون يهزّه إلى الأمام وإلى الخلف، وأولئك الذين أسرعوا إلى جوارهما سمعوه يهمس طويلًا في أُذن باك ببعض ألفاظ السباب، يهمس بحرارة، ونعومة، وبمحبّة.

- «هذا شيء رائع يا سيدي، رائع حقًّا»، هكذا صاح ثري منطقة المناجم في «سكوكام بينشز» بالأسلوب المتعجّل نفسه، ثم أضاف:

«سوف أعطيك ألف دولار ثمنًا له يا سيدي، ألف دولار، لا بل ألفًا ومائتين يا سيدي».

انتصب ثورنتون واقفًا، وعيناه مبللتان، والدموع تجري واضحة على خديه، ثم قال:

- «لا يا سيدي، يمكنك أن تذهب إلى الجحيم، يا سيدي. هذا أفضل ما يمكنني عمله لك يا سيدي».

أخذ باك كف چون ثورنتون بين أسنانه، على حين شرع الرجل في أرجحته إلى الأمام وإلى الخلف، وكأنما الاثنان يصدران عن الدافع نفسه، أما المراقبون لهما فقد تراجعوا تاركين لهما مسافة كافية، وكانوا أيضًا من الحكمة بحيث لا يقاطعوا تواصلهما.

٧- باك يسمع النداء

عندما ساعد باك سيده چون ثورنتون في كسب ألف وستمائة دولار في خمس دقائق، تمكّن بتلك النقود من تسديد بعض الديون، كما شرع في الاستعداد لرحلة مع شركائه إلى الشرق، بحثًا عن منجم أسطوري مفقود، قديم قِدم هذه البلاد. كثير من الرجال خرجوا للبحث عنه، وقليل منهم وجدوه بالفعل، وكثيرون لم يعودوا أبدًا من رحلة البحث عنه. هذا المنجم المفقود كان مُحاطًا بجو مأساوي، يكتنفه الغموض، ولم يعرف أحد من هو أقدم المنقّبين الذين وصلوا إليه، فأقدم الحكايات تتوقّف قبل أن تصل إليه. ويُحكى أن ثمة كوخًا قديمًا متداعيًا، وقد أقسم على وجوده رجال كثيرون وهم على عتبة الموت، كما أقسموا على وجود المنجم نفسه، كما أكّدوا قولهم بإظهار كتل من الذهب الخام التي تختلف عن أي نوع سبق للمنقّبين العثور عليه في أرض الشمال.

لقد مات كثيرون خلال محاولاتهم الاستيلاء على ذلك الكنز، وليس من الأحياء في تلك اللحظة من يدّعي نجاحه في الوصول إليه.

وهكذا قرّر چون ثورنتون وييت وهانز، ومعهم باك ونحو نصف دزينة من الكلاب الأخرى أن يتوجّهوا ناحية الشرق، سائرين على طريق مجهول، آملين في تحقيق ما أخفق رجال آخرون في تحقيقه، رغم أنهم لا يقلّون عنهم مهارة.

وهكذا سافر الفريق لمسافة سبعين ميلًا شمالًا مع نهر «يوكن» ثم انحرفوا في اتجاه اليسار إلى نهر «ستيوارت»، ومرّوا بقرية «مايو»، ومنها إلى منطقة «مَكوستشن»، واستمرّوا في طريقهم حتى تحول نهر ستيورات ذاته إلى نهر صغير يشقّ طريقه بحذر إلى القمم الشاهقة التي تمثّل العمود الفقري للقارة.

اعتاد چون ثورنتون أن يتوقّع القليل من البشر ومن الطبيعة. ولم يكن يخشى البراري، بل تكفيه حفنة من الملح وبندقية ليقذف بنفسه في قلب الغابة ويتجوّل كيفما يشاء. كذلك لم يكن على عجلة من أمره، مثله مثل سكان المنطقة الأصليين، فهو يصطاد غذاءه أثناء السفر، وإذا أخفق في العثور عليه، فهو مثل السكان الأصليين أيضًا، يستمر في التجول واثقًا

من أن غذاءه سيأتيه، إن عاجلًا أو آجلًا. هكذا انطلق ثورنتون ورفاقه في تلك الرحلة المثيرة إلى الشرق، واللحوم هي وجبتهم الأساسية، أما حمولتهم على الزلّاجة فتضم ذخيرة للأسلحة، ولوازم السفر الضرورية، أما الوقت فلا حساب له، إذ المستقبل كلّه أمامهم.

كان الأمر بالنسبة لباك متعة خالصة: صيد البر، وصيد البحر، والتجوّل الدائم عبر مناطق غريبة. اعتادت المجموعة أن تنطلق في الحركة لأيام، ثم تستقرّ في مخيمها لأسابيع متواصلة هنا أو هناك، حيث تستمتع الكلاب بالتسكّع، وينشغل الرجال بالحفر في الطين والحصى المتجمّدَيْن، وغسل أكوام من التراب بجوار لهب النار بحثًا عن الذهب. قرصهم الجوع في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى انخرطوا في احتفالات صاخبة، وذلك بحسب وفرة الصّيد وحظ الصيادين. وحلّ الصيف، فوضع الجميع أحمالهم على ظهورهم، وأبحروا على طوافات من الخشب عبر بحيرات الجبال الرائقة الزرقة، وصعدوا وهبطوا عبر أنهار مجهولة في قوارب صغيرة صنعوها من أخشاب الغابة المحيطة بهم.

وتتابعت الشهور وهم يجوبون البراح غير المأهول، حيث لم يصل بشر من قبل، أو لعل بعض البشر وصلوا إن كانت قصة الكوخ المهجور صحيحة. خاضوا غمار عواصف الصيف، وعلى الجبال العارية بين آخر حدود خضرة الأشجار من ناحية، والثلوج اللانهائية من ناحية أخرى، أخذوا يرتجفون تحت شمس منتصف الليل، التي لا يراها إلا سكان القطب الشمالي. وجاسوا في الصيف خلال الوديان وسط أسراب البعوض والذباب، تحت ظلال كتل الجليد الضخمة التي لم يُذِبها الصيف، يجمعون أنواعًا مختلفة من الزهور والفاكهة الناضجة شبيهة بتلك المُتاحة في الجنوب. وفي فصل الخريف، اخترق ثورنتون ورفاقه منطقة غريبة عجيبة بجوار إحدى البحيرات. منطقةحزينة وهادئة، وجدوا بها بعض الطيور البرّية، بلا حياة، ولا أي علامات على وجود حياة، وإنما فقط الرياح القارصة البرودة، والجليد الذي يتراكم في الزوايا البعيدة، والأمواج التي تضرب الشاطئ المهجور في كآبة.

ثم جاء شتاء ثانٍ، وارتاد الفريق الطرق الجليدية المهجورة التي سار عليها الرجال قبلهم. وذات يوم، لمح المسافرون طريقًا جليديًا قديمًا يلمع أمامهم في الغابة، وبدا لهم أن الكوخ المهجور بات على بعد خطوات منهم، لكن الطريق انتهى فجأة مثلما ظهر، وظل سرًّا غامضًا، غموض صاحبه والسبب الذي شقَّه من أجله. وذات يوم آخر، وقعوا بمحض الصدفة على آثار عفَّى عليها الزمن لكوخ صيد محطّم، ووسط مزق صغيرة متعفّنة من بطانية بالية عثر چون ثورنتون على سلاح ناري ذي ماسورة طويلة، تعرّف عليه أنه من إنتاج شركة هادسون باي، فقد سبق له استخدام مثله في شبابه في شمال غربي البلاد. وكانت قيمة ذلك السلاح عالية للغاية في ذلك الزمان، فهي قد تساوي قيمة كومة بنفس ارتفاعها من فراء حيوان القندس. هذا كل ما وجده في الكوخ، من دون أي إشارة إلى الرجل الذي بنى الكهف في الماضي، وترك ذلك السلاح الناري.

وجاء الربيع مرة أخرى، وفيه انتهى تجوالهم ولم يجدوا الكوخ المفقود، وإنما وجدوا أنفسهم في وادٍ واسع الأرجاء حيث أحواض ضحلة فيها عيّنات من الصخور، يلمع الذهب وسطها كأنه زبدة صفراء اللون تلمع في قعر إناء منزلي، عندئذٍ توقّفوا عن البحث، وبدأوا العمل. وأخذوا يعملون يوميًّا، وكل يوم عمل يعني لهم آلافًا من الدولارات، على شكل قطع متماسكة من معدن الذهب أو ذرات من غباره. جمع الرجال الذهب في حقائب مصنوعة من جلد الوعول، خمسون رطلًا في كل حقيبة، ثم قاموا بوضعها جميعًا في أكوام كأنها أخشاب للتدفئة، خارج الكوخ المصنوع من أغصان أشجار الصنوبر. لقد أنجز الرجال عملًا جبارًا في تلك الفترة، ومضت الأيام تتابع في سرعة كأنها أحلام، على حين أخذت كومة الكنز الذي حصلوا عليه تزداد ارتفاعًا.

لم يكن ثمة عمل مطلوب من الكلاب، سوى جرّ الفرائس التي يصطادها ثورنتون لطعامهم، لذا أُتيحت الفرصة لباك لقضاء ساعات طويلة في مراقبة النار وهو مستلقٍ بجوارها. وما أكثر ما زارته رؤى الرجل

المُشعِر قصير الساقين، في تلك الفترة، خصوصًا في الأوقات التي تميّزت بنُدرة العمل، وما أكثر ما تجولا معًا في ذلك العالم الآخر القابع في ذاكرة باك، بينما عيناه تومضان وهو مستغرق في النظر إلى النار.

بدا لباك أن الشعور بالخوف هو أكثر ما يميّز ذلك العالم الآخر، فهو عندما يُحدِّق في الرجل ذي الساقين القصيرتين، وقد نام بجوار النار، رأسه بين ركبتيه ويداه متشابكتان إلى الأعلى، يجد نومه غير مستقرٍّ، تتخلّله لحظات استيقاظ كثيرة يمعن خلالها النظر خائفًا في الظلام، ويقذف بالمزيد من الخشب في أتون النار. هل يا تُرى سار الاثنان على شاطئ البحر، حيث أخذ الرجل المُشعر يجمع المحار ويأكله في التو واللحظة، بينما عيناه لا تكفّان عن الدوران في كل اتجاه تحسّبًا لأي خطر مستتر، وساقاه على استعداد للجري بسرعة الريح عند ظهور ما قد يُنبئ بالخطر. لقد تسلّلا سويًا، من دون أي صوت، إلى داخل الغابة، الرجل في المقدّمة، يتبعه باك، وهما في أقصى حالات التيقّظ والانتباه: آذانهما تختلج، ومنخاراهما يرتعشان، فكلاهما يتمتّعان بنفس القدرة الفائقة

على السمع والشم. كذلك أظهر الرجل مهارةً في التنقل بين الأشجار، لا تقل عن قدرته على المشي على الأرض، فهو يتأرجح من فرع إلى آخر، بينهما ما يزيد على عشر أقدام، فيترك هذا ويقبض على ذاك، من دون أن يسقط أو تنفكّ قبضته عن أحدهما. كان واضحًا من دون أي شك أن الرجل معتاد على الحركة بين الأشجار اعتياده على الحركة على الأرض، ولا يزال باك يحتفظ في ذاكرته بصورة الرجل الجاثم نائمًا تحت الأشجار، من دون أن يتخلّى عن حذره وترقّبه للخطر.

بات واضحًا أن النداء القوي الذي يأتي إلى باك من أعماق الغابة، وثيق الصلة برؤاه التي يصحب فيها ذلك الرجل. ما أعجب ذلك النداء الذي كان يجعل صدره يجيش باضطراب عظيم وبرغبات غير مفهومة؛ إنه يجعله يشعر بسعادة أخّاذة غامضة، ويثير في نفسه توق بدائي عارم إلى أشياء لا يدري ماهيتها. لقد استجاب باك لذلك النداء عدّة مرات، فكان يندفع إلى قلب الغابة باحثًا عنه وكأنه شيء ملموس يمكن العثور عليه، على حين يتصاعد نباحه هادئًا أو متحدّيًا. وقد يدُسّ أنفه وسط الطحالب

الرطبة، أو في التربة حيث تنمو الأعشاب الطويلة، فيتشمّم ببهجة روائح الأرض، أو يربض لساعات، كأنما متعمِّدًا الاختفاء، خلف جذوع الأشجار التي سقطت على الأرض وغطّتها الفطريات، ويظلّ ساكنًا، بعينين تحملقان وأذنين تتسمّعان، محاولًا استيعاب كل ما يحيط به من حركات وأصوات، ولعلّه في رقدته هذه كان يأمل في أن يفاجئ ذلك النداء الذي لا يفهمه. باك على كلّ حال لم يعرف لماذا يفعل تلك الأشياء كلّها، بل وجد نفسه مدفوعًا لذلك، من دون أن يدري السبب.

سيطرت عليه في بعض الأحيان نوازع لا تُقاوَم، فقد يرقد في غفوة خفيفة في المخيّم أثناء النهار، وفجأة، ترتفع رأسه وتنتصب أذناه لتستمعا بعمق، ثم يستوي واقفًا ويندفع بعيدًا، ويسير ويسير على غير هدى لساعات طويلة، خلال ممرّات الغابة، وعبر المساحات الخالية حيث توجد حِزمٌ من نبات «رأس العبد». لقد صار مُغرمًا بالركض في مجاري المياه الجافّة، وبالتسلّل ليتلصّص على حياة الطيور، فكان يتمدّد وسط دغل من الشجيرات الصغيرة، حيث يظلّ يراقب طيور الحجلان وهي

تغرّد وتتواثب. كذلك كان يحبّ الركض في ظلمة منتصف ليالي الصيف، ليستمع إلى الهمهمات المكتومة للغابة شبه النائمة، ويتطلّع إلى ما حوله من علامات، ويُصغي إلى الأصوات، كما يقرأ البشر الكتب، ويفعل ذلك كلّه بحثًا عن ذلك الشيء الغامض الذي لا يكفّ عن مناداته في يقظته ومنامه، أي في الأوقات كلها.

وانتفض باك ذات ليلة من نومه متوثِّبًا، بعينين مترقّبتين ومنخارين يرتعشان ويتشمّمان الهواء، على حين أخذ الشعر على كتفه ينتفش في موجات متتابعة. وانبعث من قلب الغابة النداء الغريب في واحدة من نغماته المتعدّدة؛ جاء هذه المرّة واضحًا مُمَيّزًا أكثر من أي مرّة سابقة، جاء على شكل عواء طويل يشبه إلى حدٍّ ما صوت كلاب «هاسكي» وإن اختلف عنه أيضًا. لقد تعرَّف إلى ذلك الصوت على أي حال، كصوتٍ سبق له أن سمعه. انطلق باك خلال المخيّم النائم، وانسلّ بخفة وهدوء إلى الدغل القريب، وكلما اقترب من مصدر الصوت أخذ يبطئ من مشيته، ويزداد حذرًا، حتى وصل إلى منطقة فسيحة خالية بين الأشجار،

وإذا به يجد ذئبًا رماديًا نحيلًا، يجلس منتصبًا على قائمتيه، وقد تطلّع بوجهه إلى أعلى وأنفه يشير إلى السماء.

لم يُثر باك أي ضجة، ورغم ذلك توقّف الذئب عن العواء مستشعرًا وجوده. خرج باك من مخبئه بجسم متماسك، نصف منحنٍ، ذيله مستقيمٌ مشدودٌ، وخطواته حريصة بشكل أكثر من المألوف. بدت كل خطوة وكأنها تعلن عن التهديد والتلويح بالصداقة في آن، أو هي الهدنة المتوجّسة التي تتميّز بها المواجهة بين وحشين مفترسين. انطلق الذئب هاربًا عندما رأى باك، فتبعه باك وهو يثب في سرعة وإصرار على اللّحاق به. طارده باك حتى صار الذئب أمام قناة مائية مسدودة، إذ اعترضت مجراها مجموعة أخشاب مستقرّة في القاع. وجد الذئب نفسه محاصرًا فاستدار إلى باك بسرعة وأخذ يفعل مثلما اعتاد الكلب چو، بل كما تفعل كل كلاب فصيلة «هاسكي»، فهو يزمجر وينفش شعره، على حين تصطك أسنانه في طقطقة سريعة متتابعة.

لم يهاجمه باك، بل جعل يدور حوله ويطوّقه بمشاعر المودّة، غير أن الذئب كان خائفًا منه، ومُتشكّكًا في نياته، فقد كان باك يزن نحو ثلاثة أضعاف وزنه، كذلك كانت رأسه بالكاد تصل إلى كتف باك. لذلك انطلق الذئب يجري من جديد، بعد وثبة مفاجئة. ثم تكرّرت المطاردة، ثم محاصرة وهروب مرّة بعد مرّة. ومع أن الإعياء كان قد بلغ منه مبلغًا كبيرًا، وإلا لما تمكّن باك من اللحاق به، فقد استمرّ ينطلق في الجري ووراءه باك. صار باك يبلغه حتى تصبح رأسه موازية لخاصرته، فيستدير ويزوم ثم يبحث عن فرصة للوثوب والهرب مرّة أخرى.

أخيرا كوفئ باك على مثابرته في نهاية الأمر، فقد أيقن الذئب أن باك لا يتعمّد أي أذى له، فَقبِلَ أن يقترب منه، وأن يتشمّم كل منهما أنف الآخر كما هي عادة الكلاب عند التحيّة. وأظهر الاثنان المودّة لبعضهما ثم انشغلا باللعب بتلك الطريقة التي تجمع بين الحذر والتوتّر، وفيها تتجلّى محاولة الحيوانات المتوحّشة التخلي عن شراستها. وبعد بعض الوقت، ابتعد الذئب بخطوة واسعة متمهّلة، وبدا واضحًا أنه متوجّه إلى

مكانٍ ما، وبطريقة انطلاقه أوضح لباك أنه يرحّب به للذهاب معه. وهكذا شرع الاثنان في الركض متجاورين في ظلمة ما قبل الفجر، من قاع ذلك الجدول الصغير إلى أعلى حيث منبعه، مرورًا بالمواضع التي انقسم فيها تيار الماء إلى عدة اتجاهات.

خرج الاثنان من ذلك الممر المائي ليجدا نفسيهما في أرض منبسطة حيث تمتد الغابة وتتعدّد مجاري المياه، فظلّا يركضان بوتيرة ثابتة ساعة بعد ساعة، وقد ارتفعت الشمس في السماء وغمر الدفء الأرض. أما باك، فقد غمرته السعادة، وأدرك أنه أخيرًا يلبي النداء، بينما يجري برفقة أخيه الغابيّ في اتجاه المصدر الذي يأتي منه النداء. وانثالت الذكريات القديمة في صدر باك بسرعة، على حين أخذ هو يستجيب لها، كما كان في الماضي يستجيب لأصلها الذي ليست هذه الذكريات إلّا ظلالًا له. لقد فعل ذلك الذي يفعله الآن من قبل، في مكان ما من ذلك العالم الآخر الذي عاش فيه ولا يحمل منه سوى ذكرى باهتة. وها هو ذا يفعل ذلك

الآن مرّة أخرى، فيجري حرًّا في البراح الواسع، والأرض منبسطة تحت أقدامه، والسماء الواسعة تظلِّله.

توقّف الاثنان ليشربا من أحد المجاري المائية، عندئذٍ تذكّر باك چون ثورنتون، فجلس في مكانه. أما الذئب فانطلق في طريقه، فيما بدا لباك أنه بالتأكيد حيث يأتي النداء، ثم عاد ثانية إلى باك، فتشمّم أنفه، وقام ببعض الحركات التي دلت على تشجيعه لباك للذهاب معه. باك من ناحيته استدار وبدأ يسير ببطء في الاتجاه المعاكس، ولمّا يقرب من الساعة أخذ أخ الغابة يركض بجواره وهو يتأوّه بصوت خافت، ثم إذا به يجلس في مكانه، مشيرًا بأنفه إلى السماء، ويطلق عواءً حزينًا. وبينما استمر باك في طريقه، أخذ صوت العواء يخفت شيئًا فشيئًا في أذنيه حتى تلاشى مع بعد المسافة.

كان چون ثورنتون يتناول عشاءه عندما اندفع باك إلى الخيمة، وقفز عليه في نوبة من مشاعر الحب الحارّة، فقلبه على الأرض، وأخذ يلعق وجهه، ويعض على يده، ويلاعبه في حين كان ثورنتون يُؤرجح باك إلى

الأمام وإلى الخلف وهو يهمس في أذنه بكلمات السباب مداعبًا، كما هي عادته.

ظلّ باك في المخيم لا يتركه لمدة يومين بليلتيهما، ولم يَدَع ثورنتون يغيب عن عينيه طوال ذلك الوقت، فكان يتبعه وهو يمضي لشؤونه، ويرقبه وهو يتناول طعامه، ويطمئن عليه وهو يرقد في فراشه في المساء، ثم وهو يغادره في الصباح، وبعد هذين اليومين بدأ النداء الآتي من الغابة يعود إليه مُلِحًّا أكثر من أي وقت مضى. عندئذٍ، بدأ باك يشعر بالاضطراب مرة أخرى، وأخذت حوادث مغامرته مع الأخ الوحشيّ تطارده وتلحّ على ذهنه، وتذكّر الأرض البراح البعيدة، والجري معًا جنبًا إلى جنب في أنحاء الغابة البعيدة. وصار من عادة باك أن يتجوّل في الأحراش، لكنَّ الأخ الوحشيّ لم يظهر مرة أخرى، ورغم أن باك ظل يصغي إلى صوته، فلم يصل إلى أذنيه ذلك العواء الحزين.

وبدأ باك يقضي لياليه خارج المخيّم، وقد يمتدّ ذلك لعدة ليالٍ أحيانا. وفي إحدى المرات ذهب إلى حيث ذهب مع صديقه الذئب، بين

الأشجار وجداول الماء، وظلّ يتجوّل في تلك المنطقة لمدة أسبوع، باحثًا عن أي علامة ولو بسيطة تنبئ عن وجوده، من دون جدوى. سار باك بخطى واسعة وقفزات سريعة لم تسبب له التعب، ولجأ إلى اصطياد غذائه بنفسه: لحومًا من الغابة أو أسماك سلمون من جدول واسع يصب في مكان ما من البحر. وقد قتل بجوار ذلك الجدول دبًّا أسودَ ضخمًا كان يصطاد غذاءه من الماء وقد أعمته أسراب البعوض عن الرؤية. وجده باك وقد استشاط غضبًا، وملأ المكان صراخًا عاجزًا مرعبًا. ورغم ذلك، كانت المعركة شرسة، وقد أثارت بقايا الضراوة الكامنة في نفس باك. وعندما عاد باك بعد يومين إلى الموضع نفسه، ووجد مجموعة من صغار بنات آوى تتقاتل على تلك الغنيمة، فأطاح بها فتطايرت كالقش هاربة، فيما عدا اثنين قضى باك عليهما.

وتضخّمت الرغبة في القتل في نفس باك، فالافتراس هو طبيعته، يقتل حتى لا يُقتَل ولكي تستمرّ حياته. هو يستطيع أن يفعل ذلك من دون حاجة إلى المساعدة، ففي قوته وجرأته ما يكفي لكي يحيا منتصرًا في بيئة

معادية لا ينتصر فيها إلا الأقوى. من أجل ذلك كلّه، صار باك فخورًا بنفسه، وانتقل شعوره بالفخر إلى جسده، فأصبح يعلن عن نفسه في كل حركاته، ويتجلّى في كل عضلة تنقبض أو تنبسط في جسمه، كما يظهر بوضوح، كأنه كلام مكتوب، في شكله الذي يخرج به على الناس، حتى إنه جعل فراءه الرائع الذي يغطي جسمه أكثر روعة. أما اللون البنّي الغريب على خطمه، وأعلى عينيه، ودفقة الشعر الأبيض التي تجري في الوسط من صدره، فيمكن أن تجعل بعضهم يخطئ ويظنه ذئبًا ضخم الجثة، بل أضخم من أي ذئب آخر. لقد ورث باك عن أبيه من فصيلة «سان برنارد» الوزن والحجم، على حين استمد الشكل من أمه من فصيلة «الراعي». خطمه كان طويلًا مثل خطم الذئب، غير أنه كان أكبر من أي ذئب، كما كانت رأسه تشبه رؤوس الذئاب ولكن بحجم مضاعف.

تميّز باك بدهاء الذئاب، وكان دهاؤه جامحًا. كما جمع بين ذكاء فصيلتي أبيه وأمه، كل هذا بالإضافة إلى أن التجربة التي عاشها في أقسى

مدارس الحياة جعلته كائنًا هائلًا، لا يقلّ بأي حال عن الوحوش الأخرى التي تجوب أرجاء البراري. وتكوَّن غذاؤه من اللحم الخالص إذ كان بطبيعته من آكلي اللحوم فقط، فجسمه إذًا في قمة ازدهاره، يفيض بالحيوية والعنفوان. عندما وضع ثورنتون يده على ظهره مربِّتًا سمع صوت اصطكاك وطقطقة، فقد كانت كل شعرة على ظهره تُفرِّغ طاقتها المغنطيسية المكتومة في هذا الاحتكاك. كل جزء منه، الدماغ، والجسم، والأنسجة العصبية والألياف، كلها كانت تعمل في تناغم وتجانس رائعَيْن. وتميّز باك كذلك بقدرة على الاستجابة بسرعة البرق للمشاهد والأصوات والحوادث التي تتطلّب تصرفًا سريعًا، أما سرعته في رد الهجوم أو بدئه إذا لزم الأمر فهي تبلغ ضعف سرعة كلب «هاسكي» في القيام بذلك. كان يمكن لباك أن يرى أو يسمع ما يتطلّب استجابته، ثم يأتي رد فعله في وقت أقل من ذلك الذي يحتاجه كلب آخر فقط لاستيعاب الحركة أو الصوت. كان يبدو وكأنه يستوعب ويقرّر ويقوم برد الفعل في الوقت نفسه، والحقيقة أن الأفعال الثلاثة كانت تتم متتالية

ولكن بفواصل زمانية متناهية الصِغر، حتى إنها تبدو متزامنة. وضجّت عضلاته بالحيوية، حتى إنها تنبض أحيانًا تحت جلده ككرات من الصلب. نعم، كانت الحياة تتدفق في عروقه غامرة مفعمة بالسعادة، حتى بدا وكأنه سينفجر جَذِلًا ويفيض بماء الحياة هذا على العالم من حوله.

قال چون ثورنتون يومًا وهو جالس مع شركائه يرقبون باك وهو يسير إلى خارج المخيم:

- «لم أرَ كلبًا مثل هذا من قبل».

وعقّب ييت:

- «لقد صُنع على غير مثال، فلا يُشبهه شيء».

وقال هانز مؤكدًا:

- «أقسم بالله. ليس له مثيل».

لقد رأوه جميعًا وهو يغادر المخيم، لكنَّ أحدًا منهم لم يرَ التحوّل الفوري الفظيع الذي يحدث له وهو مختفٍ في قلب الغابة، فهو حينئذٍ لا

يكون هو نفسه ولا يسير بطريقته نفسها، وإنما يصير في التوّ واللحظة مُنتميًا إلى البراري، فيتحرّك في خفّة القط، ويتسلّل ليسرق من دون أن يشعر به أحد. ينسلّ كَطَيف يظهر ويختفي بين الأطياف. تعَلّم باك كيف يغتنم أي فرصة للتخَفِّي في الغابة، فهو يزحف على بطنه مثل الحيّة، ومثلها أيضًا يمكنه أن ينقضَّ بسرعة مهاجمًا فريسته. كذلك يمكنه أن ينتزع طائر ترمجان من عشه، ويقتل أرنبًا أثناء نومه، ويصطاد السناجب الصغيرة التي لا تسعفها سرعتها بالهرب منه إلى أعالي الأشجار، فيمسكها في اللحظات الأخيرة، وهي معلّقة في الهواء. وبات سهلًا عليه أن يصطاد الأسماك من البرك المكشوفة، رغم سرعة حركتها في الماء، ويمسك بالقنادس وهي تبني السدود، رغم توخّيها غاية الحذر. نعم، اعتاد باك على القتل، ولكنه يقتل ليأكل لا ليلهو، ويفضِّل أن يأكل مما اصطاده بنفسه. لذلك تميّزت بعض أفعاله بروح كامنة من المرح، فكان مثلًا يسعد بالتلصّص على السناجب إلى أن يتمكن من الإمساك بها،

وعندما تفقد الأمل في النجاة يتركها فتفر إلى أعالي الأشجار وهي تتصايح في فزع مُميت.

ثم جاء خريف ذلك العام، وظهرت الوعول تتحرّك ببطء في أعداد كبيرة متجهة إلى الجنوب حتى إذا جاء الشتاء، احتمت من قسوته في الوديان المنخفضة. نجح باك في الحصول على واحد من تلك الوعول ضلّ طريقه عن بقية المجموعة، غير أن باك كان يأمل في غنيمة أكبر وأكثر إثارة للتحدّي، وقد حصل عليها بالفعل عند منبع الجدول الذي مرّ به من قبل. حدث ذلك عندما ظهرت جماعة تضم نحو عشرين من الوعول آتية من بعيد، حيث جداول الماء والأشجار الضخمة. ووقعت عين باك على أحدها، وهو ذكر ضخم الجثّة، تبدو عليه علامات الشراسة وسوء الطبع، يزيد ارتفاعه على ست أقدام، وهو بذلك يمثّل ما يتمنّى باك في خصم له. ظلّ الوعل يتقدّم ناشرًا قرنيه الضخمين اللذين يشبه كل منهما كفًّا آدمية مفرودة، ويتفرّعان إلى أربع عشرة قرن، وتصل المسافة بين

طرفيهما إلى سبع أقدام. لمعت عينا الوعل الضيّقتان ببريق غاضب شرس، وأطلق خوارًا مروّعًا عند رؤيته باك.

وقد اتضح أن غضب ذلك الحيوان الضخم سببه سهم طرفه مكسو بالرّيش كان مغروزًا في جسده قرب خاصرته. وقد قرّر باك، اعتمادًا على خبرته القديمة بالصيد في العالم البدائي، أن يعمل على فصل ذلك الوعل عن بقية القطيع، ولم يكن ذلك بالعمل السهل. أخذ باك ينبح ويتواثب على مرأى من الوعل الضخم، مُتَجنّبًا أن يقع في مجال هجوم قرنيه الضخمين، أو أن يطوله أحد حوافره الثقيلة المتباعدة، الذي يمكن لأي منها أن يسلبه حياته بضربة واحدة. لم يستطع الوعل بطبيعة الحال أن يتجاهل الخطر الذي يمثّله باك ويمضي في طريقه، فتعرّض لعدة نوبات من الغضب الجامح، وعندئذٍ كان يحاول مهاجمة باك، الذي يتراجع بمكر، مستدرجًا الوعل إليه بتصنّعه عدم القدرة على الهرب. وعندما يكاد باك ينجح في تنفيذ خطته، يندفع اثنان أو ثلاثة من الوعول في القطيع محاولين مهاجمة باك، وعائدين بالوعل الجريح إلى القطيع.

الصبر أساسي جدًا في حياة البراري، صبر عنيد مثابر لا يملّ ولا يكلّ، كالحياة نفسها. هذا الصبر هو الذي يجعل العنكبوت ساكنًا في شبكته لساعات بلا نهاية، ويجعل الحيّة تظلّ لوقتٍ طويل ملتفة على نفسها، والنمر ساكنًا في مكمنه لساعات بلا عدد. إنه الصبر الذي تعرفه على وجه الخصوص الكائنات التي تعتمد في غذائها على سلب حياة كائنات أخرى. وقد اتّصف باك بهذا الصبر، إذ ظل ملازمًا لذلك القطيع، يتقدّم ويتأخر، يقترب ويبتعد بحسب الحاجة، وقد نجح في إثارة التوتر بين أفراده، فصغار الوعول يشعرون بالخوف، والإناث يعتريها القلق على صغارها، والوعل الجريح يزداد غضبه اتّقادًا.واستمر ذلك الوضع على مدى نصف يوم: باك يهاجم من كل ناحية، وكأنه تعدّد ولم يعد واحدًا، محيطًا القطيع بدوامة من الرعب والتهديد، وقد تكرّر نجاحه في إبعاد الوعل الجريح عن رفاقه كلما عاد إلى القطيع، وأدى ذلك كلّه إلى استنفاد صبر الفرائس المحتملة، وهو في العادة أضعف إلى حد كبير من صبر الحيوانات المفترسة.

اقترب اليوم من نهايته، وجنحت الشمس إلى المغيب في الشمال الغربي، فقد عادت ساعات الظلام وصار الليل في الخريف يمتدّ لنحو ست ساعات. لا تزال الوعول الشابة تُبطئ خطواتها ليلحق بها قائدها الجريح، ولكن بشيء من التذمّر. إن الشتاء الذي يحُثّ الخطى مقتربًا يدفعها إلى الإسراع للوصول إلى المناطق المنخفضة، وهي في ما يبدو غير قادرة على التخلّص من ذلك الكائن المشاكس الذي لا يكفّ عن محاولة تعطيلها. وفي واقع الأمر، فإن الخطر المحدق بها الآن لا يهدّد حياة القطيع كلّه أو حتى حياة الصغار، بل فقط حياة الوعل الجريح هي المطلوبة، والأولوية بالطبع لحياة القطيع كله. إذًا فلا مفر من التضحية.

وقف الوعل الجريح مُطأطأ الرأس، يراقب أفراد القطيع وهم يبتعدون راحلين، وقد آذنت الشمس بالمغيب. وقف يراقب الإناث التي عرفها، والصغار التي كان أبًا لها، والوعول التي طالما كان قائدًا لها، وهي جميعًا تحثّ الخطى في الضوء الكابي قبل الغروب. لم يستطع أن يذهب مع القطيع، فكيف يذهب وتلك الأنياب الحادة تحوم حوله

وتتربّص به بلا بادرة من رحمة، ولن تدعه يذهب. إن وزنه يزيد على نصف طن، وقد عاش حياة طويلة قوية مليئة بالمعارك والمواجهات، وها هو ذا الآن يواجه الموت من خلال أسنان كائن لا تصل رأسه لارتفاع ركبتيه العظيمتين المتهاويتين.

ابتداءً من تلك اللحظة، لم يفارق باك ضحيته ولو لثوانٍ قليلة، ليلًا أو نهارًا، ولم يترك للوعل دقيقة من الراحة، ولم يسمح له على الإطلاق أن يرعى أوراق الشجر أو أفرع أشجار البتولا والصفصاف الصغيرة، بل لم يُعطه فرصة لكي يروي عطشه الحارق من جداول المياه الصغيرة التي يعبرانها معًا. وبدا للوعل الجريح أن يحاول عدّة مرّات الفرار، فلم يحاول باك عندئذٍ أن يوقفه، بل أخذ يتبعه بخطى واسعة، مستمتعًا بطريقة سير المباراة الدائرة بينهما، ثم يرقد هادئًا عندما يقف الوعل ساكنًا، أما إذا جاهد الأخير ليحصل على شيء من الطعام أو الشراب هاجمه باك بشراسة.

تدلّى الرأس الضخم أكثر وأكثر تحت شجرة القرون التي يحملها، وأخذ الوهن يشتدّ شيئًا فشيئًا على صاحبه الذي مضى يهرول متثاقلًا، ثم لجأ إلى الوقوف لفترات طويلة، منكّس الرأس، وأذناه الهزيلتان تتدلّيان في ضعف، وهي لحظات وجدها باك مناسبة لكي يحصل على حاجته من الماء ومن الراحة. وحدث في مثل تلك اللحظات، بينما يقف باك يلهث وعيناه لا تفارقان الفريسة، أن بدأ شعور غريب يخامره أن تغَيُّرًا ما يتسلّل ويطغى على وجه الحياة. نعم، ثمة إحساس لا يمكنه تجاهله بأن شيئًا ما يتخلّق على سطح البسيطة من حوله. وكما شرعت الوعول في النزول إلى الوادي، فهناك أنواع أخرى من الكائنات الحيّة تسير في الاتجاه نفسه، وبدا كأن الغابة بهوائها وبمياهها تغُصّ بتلك الكائنات الأخرى. لقد استقرّت هذه الأنباء في وعيه، ليس بالمشاهدة ولا بالسمع، ولا بالشم، ولكن بطريقة أخرى داخلية غامضة، فهو لم يرَ شيئًا ولم يسمع شيئًا، غير أنه أدرك بما يشبه الحدس أن الأرض لم تعد هي الأرض نفسها، بل اختلفت بطريقة ما، وأن أشياء غامضة على وشك الحدوث.

واستقر رأي باك على أن يذهب لاستجلاء الأمر حالما ينتهي من المهمّة التي هو بصددها.

وأخيرًا، في نهاية اليوم الرابع، أُنهكت الفريسة تمامًا، فانقضّ باك على الوعل وقضى عليه. ظل باك ليوم وليلة بجانب الفريسة لا شاغل له سوى الأكل والنوم. ثم ولّى وجهه شطر مخيّم چون ثورنتون، منتعشًا بعد ما حصّله من الراحة، وموفور القوة. اندفع بخطوته الواسعة، يقطع المسافات الطويلة، ساعة بعد ساعة، متّجهًا مباشرةً إلى الهدف، من دون أن يختلط عليه الطريق، رغم التوائه. انطلق كالسهم في أرض غريبة بدقه ويقين يخجل منهما ويذهل لهما الإنسان وإبرته المغناطيسية.

وكلما قطع باك مزيدًا من الأرض، صار أكثر وعيًا بالتغيير الذي طرأ على الحياة من حوله. لقد اختلفت الأرض كثيرًا عما كانت عليه في الصيف الفائت. لم يعد يقينه الآن داخليًا غامضًا، بل أصبح واضحًا، تتكلّم عنه الطيور، وتثرثر به السناجب، وتهمس به الريح. وتوقّف باك عدّة مرّات، وتشمّم هواء الصباح المنعش، فقرأ رسالة ما جعلته يثب

بسرعة أكبر، وقد غمرته الكآبة لإحساسه أن كارثة ما على وشك الوقوع، إن لم تكن قد وقعت بالفعل. وبعد أن عبر باك مجرى المياه الأخير في الطريق، قبل أن ينحدر إلى الوادي، متّجهًا إلى المخيم، راح يسير بهدوء وهو في غاية الحذر.

قطع باك ثلاثة أميال أخرى، ثم رأى على الأرض آثارًا حديثة جعلت شعر رقبته يتموّج ثم ينتفش فزعًا. كانت الآثار تقود مباشرة إلى مخيم چون ثورنتون، فأسرع باك في خفة وتخفٍ، وقد أُجهدت أعصابه المتوتّرة، منتبهًا للتفاصيل الكثيرة التي تخبره بالقصة، وإن لم يعرف بعدُ نهايتها. أعطته أنفه الآن وصفًا مختلفًا عما رآه في رحلة العودة، وها هو ذا يلاحظ الصمت المثقل بالاحتمالات الذي يغمر المكان، كأنما الطيور غادرت، والسناجب اختبأت. لم يرَ باك سوى واحدٍ، ذي فروة رمادية ناعمة، وقد تمدّد مستويًا، وتحته جسم آخر رمادي اللون يرقد ساكنًا أيضًا، وكأنهما معًا شيء واحد.

أخذ باك يقترب من ذلك الجسم المسجّى، كشبح غامض، وإذا برعشة تعتري أنفه فجأة، وتجذبه إلى اتجاه آخر، وكأنما أطبق أحدهم بيده على أنفه وجذبها إلى بعيد. تبع باك تلك الرائحة فقادته إلى أجمة من الأشجار الصغيرة الملتفة، حيث عثر على نيج. وجده ملقًى على جانبه ميّتًا، وقد زحف إلى تلك البقعة بعد أن اخترق سهم جسمه، وبرز طرفاه من الجانبين: النصل من ناحية والريش من الناحية الأخرى.

ووقعت عينا باك على أحد كلاب الجرّ التي اشتراها چون ثورنتون من «داوسون»، على بعد نحو مائة ياردة من نيج، على الطريق الجليدي مباشرة. كان ذلك الكلب يتخبّط في دمه محاولًا الهرب من الموت، فدار باك حوله من دون أن يتوقّف. ثم اتجه إلى قلب المخيم بعد أن سمع غناءً يأتي من بعيد في أصوات خافتة متعدّدة، أشبه بالترنيم. تقدّم باك زاحفًا على بطنه إلى خارج منطقة الأشجار المحيطة بالمخيّم، حيث تعثر بهانز راقدًا على وجهه، وجسمه مرشوق بالسهام حتى صار كالقنفذ كبير الحجم. في اللحظة نفسها، تطلّع باك مُحدِّقًا إلى حيث موضع

الكوخ المصنوع من خشب الصنوبر، فإذا به يرى ما يجعل كلّ ما فيه يرتجف. اجتاحته عاصفة طاغية من الغضب، حتى إنه لم يدرك أنه زَمجر. نعم، صدرت عنه زمجرة عالية غاية في الشراسة. وكانت تلك هي المرة الأخيرة التي سمح فيها باك لعاطفته بأن تطغى على ذكائه ودهائه، وقد حدث ذلك التغاضي بسبب حبّه العظيم لـچون ثورنتون الذي كاد يُفقده صوابه.

كان رجال قبيلة «ييهات» - وهم من السكان الأصليين في المنطقة - منهمكين في الرقص حول حطام الكوخ الخشبي، عندما سمعوا زئيرًا مروِّعًا ثم شاهدوا حيوانًا لم يرَوا له مثيلًا من قبل يهجم عليهم. انقض باك كإعصار من الغضب، في نوبة هياج لا ترضى بغير تحطيم كل ما يقابلها. وثب باك على الرجل الذي في مقدّمة جماعة الراقصين - وهو رئيس القبيلة - فنهش عنقه الذي انفجرت عروقه في نافورة من الدم. لم يبالِ باك بضحيته أو يتوقف عندها، بل انطلق إلى الضحية التالية، وفي وثبة أخرى مزق عنق رجلٍ ثانٍ. لم يكن ثمة وسيلة

لصدّ باك أو مواجهته، إذ اقتحم الجمع يمزق ويحطم وينهش في حركة هائلة مستمرّة تتحدّى كل السهام التي صوَّبوها إليه. كانت حركته مباغتة، بشكل لا يُصَدّق، فأربكت الرجال وضاق بهم المكان، إلى حدٍّ أنهم أصابوا بعضهم بعضًا بالسهام، فمثلًا قذف أحد الصيادين الشباب برمح في الهواء على باك، فإذا به يصيب رفيقه إصابة مريعة، حتى إن نصل الرمح انكسر في جسم الضحية وظل مرشوقًا في ظهره. سيطر الرعب على رجال قبيلة ييهات، ففرّوا في فزع إلى الأحراش، وهم يصيحون معلنين قيامة الروح الشريرة.

كان باك حقًّا تجسيدًا للشيطان، إذ هو يطاردهم وقد استبد به الغضب، حتى أخذوا يتسابقون هاربين بسرعة الغزلان في أنحاء الغابة. وتفرق رجال قبيلة ييهات في أنحاء المنطقة، في ذلك اليوم المشهود في تاريخهم، واحتاج الناجون منهم لما يزيد على أسبوع للتجمع من جديد أسفل الوادي وإحصاء ضحاياهم وخسائرهم. أما باك، فقد عاد إلى المخيّم المحطّم مجهدًا من المطاردة، فعثر على ييت مقتولًا في فراشه

منذ اللحظة الأولى من التعرض للهجوم المفاجئ. أما ثورنتون فقد كانت آثار مقاومته اليائسة واضحة على الأرض لكل ذي عينين، وتتبع باك رائحته حتى بركة مياه عميقة، وعلى حافة البركة وجد باك الكلبة سكيت، المخلصة حتى اللحظة الأخيرة، ورأسها وقائمتاها الأماميتان غارقة في الماء. أما البركة نفسها فهي موحلة وقد تغير لونها بسبب قصعات ترسيب الذهب الموضوعة على جانبيها، وقد أخفت بكفاءة ما بداخلها. ولا شك أن چون ثورنتون كان يرقد ميّتًا في قاعها، فقد تبع باك آثاره التي انتهت إليها، وليس ثمة آثار له تخرج منها.

قضى باك بقية اليوم مستلقيًا في كآبة بجوار البركة، أو متجوّلًا على غير هدى حول المخيّم. هو يعرف الموت بصفته توقّفًا عن الحركة، واختفاءً للموتى من عالم الأحياء، وهو يدرك أن چون ثورنتون قد مات. يملأه الآن شعور غريب بالخَوَاء، وهو شعور قريب من الجوع، لكن الطعام لا يذهب به بل يزيده قسوة وإيلامًا. استغرق باك لبعض الوقت في فحص جثث رجال بييهات، وتأمُّلِها، عندئذٍ نسي إحساسه بالألم، واستقر

في وعيه بدلًا منه إحساس عميق بالفخر والاعتزاز بنفسه، أعمق من أي إحساس راوده من قبل. لقد قتل بعضًا من بني الإنسان، ويا لها من شجاعة، كذلك نجح في القَتْل في مواجهة قانون الهراوة والناب. تشمّم باك الجثث بفضول، وبدا له أنهم استسلموا للموت بسهولة، حتى بدا له أن قتل كلاب من فصيلة «هاسكي» كان ليتطلّب جهدًا أكبر. نعم، لم يكن هؤلاء البشر أندادًا له على الإطلاق، لولا سهامهم ورماحهم، وهراواتهم. ومن الآن فصاعدًا، لن يخافهم إلا وهم يحملون في أيديهم السهام أو الرماح أو الهراوات.

جاء المساء وظهر القمر مكتملًا في السماء فوق قمم الأشجار، فأضاء الأرض حتى كأنها تسبح في ضوء نهار باهت. ومع مجيء الليل، وبينما باك جالس حزينًا متفجّعًا بجوار البركة، أخذت حواسه تنتبه لانبعاث حياة جديدة في الغابة، بالإضافة لتلك التي أثارتها قبيلة «ييهات». انبعث باك واقفًا وشرع يتسمّع ويتشمّم، ومن بعيد ترقرق عبر الهواء صوت نباحٍ خافتٍ حادٍّ، تبعته عدة أصوات أخرى بنباح مماثل.

وبالتدريج صار صوت النباح يعلو ويقترب، وتعرّف باك على تلك الأصوات التي سبق له سماعها في ذلك العالم الآخر الذي لا يغيب عن ذاكرته. تقدم باك إلى مركز المنطقة الواسعة المكشوفة، واستمع مرة أخرى. نعم، إنه النداء نفسه، المتعدّد النغمات، وهو يبدو الآن جاذبًا بل قاهرًا أكثر من أي وقت مضى. وباك من ناحيته أكثر استعدادًا من أي وقت مضى للاستجابة لذلك النداء الآسر. لقد مات چون ثورنتون، وبموته انقطع آخر رابط بينه وبين البشر، فلم يعد هناك ما يدعوه للبقاء في عالمهم.

عبرت جماعة الذئاب من أراضي الجداول والأشجار إلى الوادي الذي استقرّ فيه باك، وذلك لتحصل على غذائها - كما تفعل قبيلة «ييهات» - من مطاردة الوعول المهاجرة. وها هي ذي تتقاطر إلى الخلاء فتبدو كتيار فضّي متلألئ في ضوء القمر، على حين وقف باك في المركز من ذلك البراح، ساكنًا بلا أي حركة كتمثال، في انتظارهم. هابته الذئاب لما رأته، بثباته وحجمه الضخم، وبعد لحظات من الصمت،

وثب عليه فجأة أكثرهم شجاعة. جاء رد الفعل من باك سريعًا حاسمًا، وبسرعة البرق انقض باك على عنق غريمه فنهشه، ثم عاد إلى السكون مرّة أخرى، على حين توارى الذئب الجريح المهزوم وراء الجمع. ثم تتابعت محاولات ثلاثة من الذئاب الأخرى، لكنها جميعًا مُنِيَت بالهزيمة، وتراجعت ودماؤها تسيل من جروح في العنق أو في الكتف.

كانت تلك النتيجة كافية لجعل جميع الذئاب تتقدّم في وقت واحد، متزاحمة بحماسة وبلا نظام، في محاولة للتغلّب على باك، غير أنه استطاع بما تميّز به من سرعة خاطفة وخفّة حركة أن ينجح في مواجهتها جميعًا. ارتكز باك على قائمتيه الخلفيتين وأخذ يعض وينهش ويجرح في كل اتجاه، وكأنه في كل مكان في الوقت نفسه، وظلّ يحاور مهاجميه ويداورهم من جانب إلى جانب، فكان وحده جبهة صدّ كاملة لم يتمكّن أحد منهم أن ينفذ منها. ولكي يمنع باك الذئاب من مهاجمته من الخلف، تراجع متجاوزًا الماء، ثم قاع الجدول إلى أن وصل إلى ضفة عالية من

الحصى، ومنها إلى زاوية ضيّقة سبق للرجال إعدادها لأغراض التعدين، وفي هذه الزاوية احتمى باك، فلم يعد الهجوم يأتيه إلا من الأمام.

نجح باك هذه المرة أيضًا في صد المهاجمين، وبعد ما يقرب من نصف ساعة تراجعت الذئاب في حيرة وارتباك، وقد تدلّت ألسنتها ولمعت أنيابها البيضاء القاسية في ضوء القمر. رقدت بعض الذئاب على الأرض وقد ارتفعت رؤوسها وانتصبت آذانها إلى الأعلى، وأخرى ظلّت واقفة ترقبه في صمت، بينما ذئاب أخرى أخذت تلعق الماء من البركة. ثم تقدّم ذئب طويل، نحيف، رمادي اللون، مقتربًا من باك، ومتودِّدًا في حذر، وتعرف فيه باك على أخيه الذئب الذي التقاه في الغابة وركضا معًا ليوم وليلة. أخذ الذئب يئن بصوت خافت، فرد عليه باك الأنين ثم تلامست أنفاهما.

ثم تقدّم في اتجاه باك ذئب عجوز هزيل تبدو على وجهه ندوب جروح المعارك، وحرّك باك شفتيه كأنه سيزوم، لكنه تشمّمه بأنفه بدلًا من ذلك. عندئذٍ جلس الذئب العجوز وتطلّع بأنفه إلى السماء ثم أصدر

عواءً طويلًا، فقعت الذئاب الأخرى وأطلقت العواء الطويل نفسه. الآن سمع باك النداء واضحًا لا لبس فيه، فجلس وعوى مثل الذئاب. وبعد أن انتهى الأمر، تحرّك باك خارجًا من الركن الذي انزوى فيه، والتف قطيع الذئاب حوله، يتشمّمه في مودة لا تخلو من الفظاظة. اندفع قادة القطيع إلى قلب الغابة، وهم يرفعون عقيرتهم بالنباح، فاندفع أفراد القطيع خلفهم يتمايلون وهم يردّدون النباح نفسه، وركض باك جنبًا إلى جنب مع شقيقه الوحشيّ، بينما يردّد النباح نفسه.

ويمكننا اعتبار هذه اللحظة هي نهاية قصة باك.

ولم تمضِ إلا سنوات قليلة قبل أن يلاحظ أفراد قبيلة «ييهات» أن شيئًا من التغيير قد طرأ على فصيلة ذئاب الغابة، فقد صار بعضها يتميز بوجود مساحات من اللون البني على رأسه أو خطمه، ووجود خط طولي من اللون الأبيض عبر صدره. أما الأكثر أهمية من ذلك، فهو أن أفراد «ييهات» يتحدّثون عن شبح كلب يجري على رأس القطيع، وهم يخشون هذا الكلب فهو أكثر منهم دهاءً، لذا ينجح في السرقة من

مخيماتهم في فصول الشتاء القارصة البرودة، ويسلبهم ما تصيده مصائدهم، ويقتل كلابهم، ويتحدّى أشجع صياديهم.

ليس هذا كل شيء، بل الأسوأ أن ثمة صيادون لا يعودون لمخيّمات القبيلة على الإطلاق، وهناك آخرون يعثر عليهم رجال القبيلة وقد نُهشَت أعناقهم بقسوة، على حين تُرى على الجليد حولهم آثار أقدام ذئب أضخم من أي آثار رأوها من قبل. وعندما يتتبّع أفراد قبيلة ييهات حركة الوعول في كل خريف، فإن هناك واديًا محدّدًا لا يدخلونه أبدًا. وتكون النساء هنّ الأكثر حزنًا عندما يتحدّث الناس حول النار عن الروح الشريرة التي اختارت ذلك الوادي بالتحديد لتستقر فيه.

أما في فصول الصيف، فليس سوى زائر واحد يظهر في ذلك الوادي، ولا تعرفه القبيلة. إنه ذئب ضخم الجثّة، ذو فراء وثير يشبه الذئاب ويختلف عنها كليًّا في الوقت نفسه. وهو يعبر وحده من أرض الأشجار الضخمة اليانعة منحدرًا إلى حيث منطقة خالية في قلب منطقة الأشجار، حيث يوجد تيار مائي ذهبي اللون يفيض من أكياس مهترئة، مصنوعة من

جلد الوعول، ثم يغوص في التربة، التي تكثر فيها الأعشاب الطويلة المختلطة ببعض النباتات المتعفّنة، وكلّها تغطيه وتخفي لمعان الذهب عن أشعة الشمس. وهناك يجلس الذئب ساكنًا لبعض الوقت، وكأنه غارق في التأمل، ثم يُصدر عواءً طويلًا حزينًا، قبل أن يغادر المكان.

وهو ليس دائمًا وحده، فعندما تأتي ليالي الشتاء الطويلة، وتخرج الذئاب لتصطاد طعامها من الوديان المنخفضة، يُرى ذلك الذئب أحيانًا على رأس القطيع تحت ضوء القمر الشاحب، أو وميض الكواكب اللامعة. عندئذٍ، يَثب في قفزات عملاقة أعلى كثيرًا من رفاقه، وينطلق صوته عاليًا كأنه يجأر، وهو يشدو بأغنية من عالمه الجديد، هي أغنية القطيع.

الفهرس

١- إلى الحياة البدائيّة..... ١
٢- قانون الهراوة والناب..... ٢٧
٣- الوحش البدائي المسيطر..... ٤٩
٤- من ظفر بالسيادة..... ٨٤
٥- كدح على الطريق..... ١٠٦
٦- في حبِّ هذا الرجل..... ١٤٥
٧- باك يسمع النداء ١٧٨
الفهرس ٢١٧

جاك لندن (١٨٧٦ - ١٩١٦)

جون غريفيث لندن، المعروف باسم جاك لندن، روائي وصحفي وناشط اجتماعي، ومن أبرز الكتاب الأميركيين الذين نالوا شهرة عالمية وتُرجمت أعمالهم إلى معظم لغات العالم. كان والده كاهنًا، لكن جاك تأثر بالماركسية، وانضمّ إلى جماعات تدعو إلى الاشتراكية، وتبنى نظرية داروين عن التطور، وهو ما ترك تأثيرًا واضحًا في معظم رواياته.

على الرغم من أنه صحفي وكاتب معروف وشاعر إلّا أنه عمل في مهن كثيرة، من عامل في مصنع، إلى بحّار وعامل منجم... وجاءت معظم أعماله في سياق انتقاد النظام الرأسمالي واستغلال العمّال، والدفاع عن الطبيعة (وهذا ما يظهر جليًّا في الرواية).

وعلى الرغم من حدّة مواقفه وتبدلها، وعلى الرغم من الآراء المتناقضة إزاء شخصه وكتابته، إلا أن هناك اتفاق على أنه كاتب عظيم ومبدع ترك تأثيرًا كبيرًا، واعتُبر ظاهرة أدبية، وصارت أعماله من كلاسيكيات الأدب الإنجليزي.

من أشهر أعماله:

- نداء البراري
- الناب الأبيض
- العقب الحديدية
- ذئب البحر
- أهالي قعر المجتمع